شفاء وهمـــي

شفـــاء وهمـــــي

"حينما تكون نفسك أول من تخدع"

روايـة

معتز حجازي الصياد

اسم الكتاب: شفاء وهمي
اسم الكاتب: معتز حجازي الصياد
تدقيق لغوي: شيرين عابدين
تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى – يناير ٢٠٢٠ م
رقم الإيداع: 2019 / 27842

Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

جميع الحقوق محفوظة للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

إهداء إلى...

كان كتابي الأول بمثابة ولادة جديدة لي فأهديته لوالدي .. اما هذا الكتاب فهو بدايتي الحقيقية في مشوار الكتابة الروائية لذلك أهدي روايتي الأولى لبدايتي الحقيقية، صديقتي الأولى والأخيرة ورفيقة الدرب، حبيبتي فؤادة..

أرى ان أفضل الحديث عنها كما عرفتها صديقة ثم حبيبة، كتبت لها اول قصة قصيرة من أكثر من عشر سنين لأخبرها ان قدرنا قد كُتِب و انني احببتها وتزوجتها وأنجبنا و ما علينا سوى ان نرى المكتوب سويا..

دعمتني كثيرا بالمجهود والتشجيع وكان كتفها دائما بكتفي لا يفارقني، ولولا حرصها على نجاحي ما كان هذا الكتاب بين أيديكم الآن.

أخرجي صندوقك من مكمنه وافتحيه لتضيفي إليه تلك الرواية بجانب كل قطعة غالية عليك و علي.

نصيحة للقارئ:

هناك عدة طرق لقراءة هذه الرواية إما أن تحضر ورقة وقلمًا فتدون كل حدث وقول قد تجده تافهًا لتعرف دور تلك الأشياء الذي دونتها عندما تتقدم الأحداث، أو أن تقرأها بشكل عادي تمامًا وعند الانتهاء منها؛ تعيد قراءتها مرة ثانية.

الدخان كثيف من حولها،
فلا ترى خلفها ولا أمامها ولا من تحتها.

(١)

٢٠٠٩

دخل شاب طويل متأنق بحُلة أنيقة أحد المقاهي الشهيرة، متفحصًا المكان بنظره حتى وجد الشخص المعني منتظره عند منضدة في ركن بعيد، سار إليه ثم جلس أمامه، متبادلين نظرات دون تحية، ثم أخرج صاحب الحلة الأنيقة سيجارة وأشعلها وقال بثقة متعجرفة للشاب الذي كان ينتظره:

- عايزني في إيه؟

كان يبدو على الشاب الآخر التوتر الشديد فرد:

- أنا مش قادر أستحمل!

نظر ذلك الأنيق للشاب المتوتر بتفحص وتدقيق ثم نفث دخان سيجارته بهدوء ورد:

- انت أكيد مش جايبني هنا عشان تقولي انك مش قادر تستحمل، ما أنا قولتلك ما ليش فيه، اتصرف.

- انت بوظتلي حياتي وأنا ساكت وما اتكلمتش.

قاطعه الأنيق بتعجرف واضح:

- ساكت غصب عنك مش بمزاجك، ما تنساش، وحياتك ايه اللي بوظتهالك، ده انا حايش عنك كتير ولا نسيت!

نظر إليه الشاب المتوتر بغضب مكتوم ولم يرد، فتابع الشاب الأنيق:

- وحتى لو افترضنا اني انا اللي مبوظلك حياتك، اختصر وهاتلي المصلحة الكبيرة وريح نفسك من كل ده.

- مش عارف، صدقني مش عارف، قولتلك كام مرة اني مش عارف!

ثم نظر حوله متوترًا واستطرد مهددًا:

- أنا مش هقدر أكمل بقية حياتي كده، أنا ليا آخر، خصوصًا وانها طلبت الطلاق اكتر من مرة.

صمت كلاهما برهة ثم اقترب الأنيق من الشخص المرتعد مهددًا:

- مش عايز خوفك وجبنك يخلوك تعمل حاجات انت نفسك مش عايز تعملها، ما تنساش انا ممكن اعمل فيك إيه، وطلاق مش هتطلق...

- انا زهقت وحياتي بتضيع قدامي، مش دي الحياة اللي كنت عايز اعيشها، ولا حتى ثانية واحدة منها، السنين عمالة تمر وانت عملني زي الكلب اللي ربطه بسلسلة...

ابتسم الأول مزهوًا بالوصف قائلًا:

- خلصلي مصلحتي وأنا أفكك.

قالها ثم ضحك بصوت عالٍ لفت أنظار المحيطين بهما، فتنهد الثاني تنهيدة حارة ونهض من مكانه منصرفًا وهو يقول:

- ما فيش فايدة.

(٢)

٢٠٢٣

شق الصمت رنين منبه، فتحت هبة الزمرد عينيها تبحث عن مصدر الصوت، وجدت نفسها على الفراش في غرفتها، يا للسأم! إنها تحلم الحلم نفسه منذ ثلاث عشرة سنة دون أن تكمله، كل يوم بلا استثناء، خمسة آلاف وأربعمئة مرة اختنقت من الخوف واستيقظت دون أن تموت! قامت بجذعها لتطفئ رنين منبه المحمول وتنظر إلى الساعة التي قاربت الفجر.

كانت مرتدية شورت قصيرًا فنظرت إلى فخذها البيضاء الممتلئة بالعضلات وربتت عليهما ثم فركت عينيها من التعب والإرهاق اللذين لا يفارقانها أبدًا خصوصًا مع الروتين القاسي الذي فرضته على نفسها حتى تستجلب بعض الأمان لروحها.

نزلت من السرير تنظر إلى نفسها في مرآة التسريحة تهندم شعرها الأحمر الكستنائي المبعثر وتتحسر على إرهاق بشرتها والهالات التي تقيم تحت جفونها... جنبت كل مشاعر الحسرة والندم تلك وبسرعة دخلت الحمام غسلت وجهها بالمياه بعنف ثم أغلقت المحبس العمومي للمياه وبقفل حديدي موضوع على طرف الحوض أوصدت نافذة الحمام... خرجت من الحمام في عجالة لتتأكد أن جميع نوافذ المنزل مغلقة بتلك الأقفال الحديد الإضافية الكبيرة التي تضعها وكأنها تغلق محلًا في سوق، نظرت إلى ساعة المحمول فوجدتها الثانية وخمسين دقيقة فجرًا!

كانت ملابس مغادرتها المنزلَ جاهزة، فبدلتها ثم ارتمت على أريكة الصالة وتنفست الصعداء؛ فلقد أنجزت مهامها الروتينية في وقت قليل وتبقى بعض الوقت قبل المغادرة.

فجلست تنظر إلى أرجاء المنزل الذي حفظته، فقد كان فقيرًا وقديمًا حتى أن رائحة العطن كانت تسكن معها، ولو دخله أحد فلن ينتابه شك في أنه مهجور، فلا تلفاز فيه، والثلاجة فارغة والأكواب معدودة والتراب موجود على بعض الأشياء، وكأن هبة تريد أن تنقل تلك الصورة لأي شخص يدخل المكان "الرسالة واضحة، لا أحد هنا".

نظرت هبة في أرجاء المكان وبإشارة مغصوبة من مخها ظهر خيال ذكرى ما للمكان، فدبت الحياة في المنزل، إنه البيت نفسه الذي تجلس فيه الآن ولكنه أكثر نورًا وحيوية وحياة... ويبدو أن جدران المنزل قد حرمت من بهجة الألوان وفي الوقت نفسه قد حُرمت هي عائلتها ناظرة إلى أرجائه، مقتحمة تلك الذكرى التي لا تحبها على الإطلاق ولكن المنزل كان في رونقه آنذاك... ذكرى عقد قرانها على زوجها طلال؛ ترى بعض الأصدقاء الآخرين المقربين بدون أبيها وأمها وأخيها، فقط في حضور خالتها الوحيدة، ابتسمت وهي ترى كل شيء يتحرك أمامها، لم تكن تبتسم لجمال الذكرى ولكن لجمال الألوان التي افتقدتها في حياتها، كانت تشتاق إلى الألوان، غابت الرؤية فجأة عندما اقتحمت دموعها المشهد... هذا الحدث الكبير في حياة أي فتاة من المفترض أن يكون أجمل أيامها خاصة وإن كان الأول ولكن بالنسبة إليها فقد كان الأتعس!

تقتحم تلك الذكرى رأسها دائما وهي في ذلك المنزل، لا تعلم لم تلك الذكرى بالذات على رغم تعاستها في هذا اليوم، لم لا تتذكر أي يوم مع أسرتها قبل رحيلهم مثلا! لكن يبدو أن للتعاسة دائمًا الغلبة.

وقفت ملتصقة بزوجها طلال استعدادًا لالتقاط صورة لهما معًا فأجبرت نفسها على حفر ابتسامة متقنة التزييف لتدفن فيها حزنها ثم انطلق الفلاش

ساطعًا في وجهها فأغلقت عينيها لترجع إلى الواقع وتبكي بقوة، فتعالى صوت نحيبها، لقد غُرس شوك الوحدة في أرض مشاعرها الجميلة حتى لم تعد تنبت غير شوك يجرحها مسببًا آلامًا ترغمها على البكاء، ليس إحساس الذكرى الذي يبكيها إنما الوحدة التي فُرضت عليها، الوحدة التي تجعلها تتذكر، تستسلم لذكرياتها بسهولة فهي الأنيس الذي تأتنس به الآن فقط!

رن منبه المحمول معلنًا الساعة الثالثة فجرًا، مسرعة ارتدت حقيبة ظهرها وغادرت شقتها وأغلقتها جيدًا بالمفتاح وذهبت مسرعة.

نزلت من عمارتها في مدينة نصر، في شارع زكي أشرف، كانت قد طلبت سيارة بواسطة محمولها لتركبها من شارع مكرم عبيد، تسير في عجالة وهي تنظر يمينًا ويسارًا متفحصة المكان، الثالثة فجرًا لا شيء يستدعي تفحص المكان! لكن هبة تحتاط لاحتمال واحد بالمئة، الأجواء ما زالت مظلمة ولم تشرق الشمس بعد، وقفت تراقب تلك المسكينة التي تراها في كل مرة وهي تغادر منزلها، راقدة على بطنها تحاول الزحف، لكنَّ عاهةً تمنعها من السير، غير أن ملابسها تبدو جيدة لمتسولة، كانت تزحف وهي تبكي وكأن هذا الزحف يؤلمها، ظلت هبة تنظر إليها حتى اختفت عن أنظارها.

شعرت وكأن شيئًا ما خفيًّا يطاردها، فبعد كل خمس خطوات تقف ناظرة خلفها متفحصة المكان، ثم تكمل سيرها، تكرر الفعل بين الفينة والأخرى، حتى خرجت إلى شارع أبو داوود الظواهري و منه إلى شارع مكرم عبيد، تتعمد هبة أن تركب من على مسافة بعيدة من مكان مسكنها! تتفحص المكان من خلفها للمرة التاسعة، لكنها هذه المرة لمحت تلك السيارة، يقودها شخص ما لا تعرفه ولم تره من قبل، لم تفكر كثيرًا، عرفت أنه يراقبها ومحتمل أيضا أن يلحق بها ضرر، لم تنتظر لتتأكد، بل ركضت مسرعة في عكس اتجاه السيارة لكي تعوقه عن ملاحقتها وتجاوزت أربع عمارات وهي تركض ثم دخلت بين العمارة الرابعة والخامسة لتختفي بينهما في عتمة الظلام، مكثت عشر دقائق ثم خرجت متوارية تتفحص المكان، فلم تجد تلك السيارة التي كانت تلاحقها؛ ركضت بسرعة وزادها الخوف سرعة حتى وصلت إلى شارع مكرم عبيد، بحثت بعينها فوجدت السيارة التي طلبتها، ركبت وسار السائق بها متجهًا إلى الكوربة.

****

ترجلت هبة من السيارة بعد أن وصلت الكوربة، تكره تلك الشقة على الإطلاق هي الأخرى ولا خيارًا آخرَ أمامها، فدائمًا عندما تأتي هنا تسير ببطء وكأن خطواتها البطيئة ستبعدها عن شقتها، هي تعلم ذلك ولكنها تأمُل أن تؤجل وصولها فحسب.

عند مدخل البناية ظهرت لها أشباح ذكريات، عندما كانت تسير ببطء متألمة من صدرها نتيجة كسر ثلاثة أضلع وقد كانت تربط صدرها بالكامل، وذراعها معلق على كتفها لكسره هو الآخر، خرجت من المصعد لتترك تلك الذكريات وتزيح قصرية الزرع لتتأكد من وجود نسخة من مفتاح شقتها ثم أرجعتها، أخرجت مفتاحها الخاص من حقيبتها، وقفت لا تريد أن تدخل الشقة، لقد ملت من التنقل،

ستدخل الشقة الآن وهي تعلم جيدًا أنها ستغادرها بعد يومين إلى شقتها الثالثة، أمسكت المفتاح بكفيها الاثنتين وهي ترتعش! تكمل ذكراها وهي في جبائرها عندما كانت تفتح الباب ودخلت لترتمي عند أول أريكة تقابلها ولا تنسى قطُّ صدرها الذي كان يعلو ويهبط من نحيب بكائها، لا تنسى قطُّ نفسها في هذا اليوم... قد ضاعت سني عمرها في الهروب والخوف، كانت تنبش عن الأمان فوجدت الخوف كالطفل الذي وجد أمه فتعلق بها ولم يتركها، وعندما تخبر نفسها أن تتحلى بالشجاعة وتواجه يأتي السؤال التالي "الشجاعة لمواجهة من!" هي لا تعلم من يقحمها في هذه اللعبة المريرة التي تعيشها؛ أخرجت هبة نفسها من ذكرياتها وأسئلتها ونهضت من على الأريكة، لتفتح قفل نافذة الصالون المغلغل بأصفاد قوية، ثم تخلع الحذاء والجورب وتفتح غرفة النوم وتغلقها من خلفها بالمفتاح وتذهب إلى فراشها وتنام قليلًا؛ فمازال الوقت باكرًا عن وقت الاستيقاظ، وهي في الأساس لا تفعل شيئًا في الحياة، فلا هي متزوجة، ولا أهل لها أو أقارب أو أصدقاء، فلتنم وتستيقظ في أي وقت... لا يهم.

****

وجدت نفسها في هذا المكان، لا تعلم متى جاءت هنا ولا كيف، لكن لا بدَّ أن تتعامل مع الموقف، تنظر حولها يمينًا ويسارًا مشتتة خائفة، إنها أرض صحراء جرداء، سماؤها سوداء وأرضها متشققة صخرية، ولم تكن على هيئتها المزرية المعتادة التي تحفظها، بل كانت جميلة عن المعتاد فوجهها نقي يملؤه الارتياح، مهندمة عن المعتاد تطغى أنوثتها عن أي وقت، شعرها الأحمر الكستنائي منسدل بحرية أكبر على كتفها الأيمن العاري حيث الهواء يداعبه، ترتدي فستانًا أبيض ناصعًا وتسير حافية، لا تشعر بأي ألم أو حرارة من قدميها الحافيتين، كيف والأرض متشققة وتبدو ساخنة من البخار المتصاعد! شكلها الجميل عكس الطبيعة القاسية التي تحيط بها وجعل الخوف يملأ نفسها ويتصاعد رويدًا وكأن هناك من يملؤه بإبريق شاي فيتصاعد ويتصاعد حتى وصل إلى حلقها وخنقها، أمسكت عنقها الطويل متمنية أن تمنع بذلك صعود الاختناق ولكن ظل يتصاعد، كُتم نفسها بعد بلوغ الخوف قمته فنزلت على ركبتيها، أغمضت عينيها لتهرب مما يحدث!

استيقظت من نومها مفزوعة، استيقظت مرة أخرى دون أن تختنق موتًا، ظلت نائمة ما يقرب من عشر ساعات دون أي رنين منبهات، وقد كانت الساعة تداني الرابعة عصرًا، فتحت عينيها ولم تنهض، كانت جوعى أمسكت محمولها وطلبت بيتزا من محل ما بالكوربة تعشق طعمها، وقالت في نهاية الطلب:

.آه سلمه للبواب وهو هيحاسب.

أنهت الطلبية ثم أحضرت النقود التي ستحاسب بها على البيتزا ثم فتحت الباب ووضعت المال على الدواسة وأغلقت الباب، بعد أكثر من نصف ساعة دق الجرس، نظرت من العين السحرية وجدت (شعبان) حارس البناية يضع البيتزا

أرضًا على الدواسة ثم يأخذ المال الموضوع فيستقل المصعد، لكن لم ينزل، لقد ركب المصعد ولم ينزل! إنه يراقبها، بعد ثلاث دقائق بالتقريب مل شعبان وانصرف، خرجت من الشقة لتلتقط البيتزا بسرعة وتدخل ثانية، التقطت قطعتين من البيتزا ثم وضعت الباقي في الثلاجة، أحضرت سماعات أذن كبيرة تلك التي تغطي الأذن كاملة وأوصلتها ببلوتوث التلفاز الذكي - الشيء الوحيد المتطور في هذه الشقة القديمة- حتى لا يعلم أحد وجود ساكن بالشقة وهي فيها، وغدت تشاهد وتقلب القنوات ساعات وساعات.

****

في الفجر بعد يومين تكرر الفعل نفسه وهي مغادرة منزل الكوربة للذهاب إلى المنزل الثالث، أغلقت كل شيء وتأكدت من جميع الأصفاد الإضافية على النوافذ وأغلقت محبس المياه العمومي وطلبت بواسطة محمولها سيارة لتحملها إلى المكان الثالث ثم نزلت، كانت تسير مسرعة وكل عشر خطوات تتلفت حولها تتفحص المكان حتى تتأكد أنه لا أحد يراقبها ثم تسير مجددًا، تسير من شارع الصومال حتى تلتقي تلك السيارة في شارع إبراهيم اللقاني، وفي أثناء سيرها وقعت عيناها على تلك البناية ونظرت إلى ذلك الشرخ الذي أحدثته بسيارتها منذ أربع عشرة سنة عند اصطدامها به بعد أن ارتطمت بسيارة أخرى مسرعة، ذلك الشرخ الذي تنظر إليه كلما مرت من هنا تاركة المنزل، كانت تعلم أنه ليست سرعتها التي جعلتها تصطدم بالسيارة الأخرى ولكن حزنها الذي سلب لبها وجعلها تفقد التركيز وتسير بتلك السرعة ذلك اليوم دون علم منها، خرجت من سيارتها المقلوبة آنذاك تزحف وبطنها مشقوقة تنزف بحرية مجنونة وكسر رسغها الأيمن كسرًا خارجيًّا حيث رأت

عظامها تطل إلى الخارج تقطر دمًا، يصاحب شق بطنها ورسغها المكسور دموع غزيرة، لألم لا يحتمله بشر فما بالك بفتاة رقيقة صغيرة في السن مثلها، ولكنها تحملت وبيدها اليسرى خلعت تلك السلسلة المتدلية من رقبتها ووضعتها في جيب سروالها حتى لا تُسرق إن فقدت وعيها، ثم ظلت تزحف كثيرًا حتى إن الناس حين تجمعوا لم يروها؛ كانت تريد ألا يراها أحد وألا يعرف مكانها أحد، تخفت بين سيارتين بجانب الرصيف أرضًا، حتى اصطدمت بها قدما أحد السائرين فنظرت إليه بوجهها الشاحب؛ فوجدته غلامًا يتجاوز العاشرة من عمره يمسك كرة قدم وينظر إليها في ذهول، كانت قد بدأت تشعر أنها تلفظ أنفاسها الأخيرة من قوة الألم متمنية أي نجدة ولكن قوة الألم كبلت فمها، رقدت على ظهرها وهي مازالت تنزف، لم تكن واثقة أن ذلك الطفل سيساعدها، ولكن الشارع كان قد خلا من الناس وليس هناك معين آخر غيره، رفعت يدها في وهن إلى الطفل، فنظر إليها الطفل كثيرًا غير واثق مما ينبغي له فعله، فمسكها من رسغها المكسور، فأغمضت عينيها في استسلام للوجع فاقدة الوعي، ثم استيقظت لتجد نفسها آنذاك في مستشفى كليوباترا، مجبسة ومضمدة...

قطعت أفكارها عندما وصلت إلى شارع إبراهيم اللقاني، حيث وجدت السيارة التي طلبتها فركبت متجهة إلى المعادي، تاركة تلك الذكريات في مكانها تراها مجددًا ومجددًا كلما عادت إلى هنا.

****

استقلت هبة مصعد العمارة في تلك المنطقة من حي المعادي الراقي، فتحت باب الشقة الفقيرة للغاية في أثاثاها تكاد تكون فارغة كسابقتها إلا منضدة طعام، أريكة أمامها تلفاز متطور وبجواره سماعة أذن للغرض نفسه؛ حتى لا تصدر أي صوت يسمعه من هو خارج الشقة والأجهزة الكهربائية الأساسية، كانت تميل لتلك الشقة أكثر من سابقتيها ؛ فلا ذكريات مؤلمة تجدها هنا كلما أتت...

خلعت ملابسها كلها كما تفعل دائمًا عندما تأتي شقةَ المعادي، وذهبت إلى الحمام تستحم بمياه ساخنة تساعدها على استرخاء أعصابها، ثم خرجت ملفوفة بمنشفة وذهبت إلى خزانة ملابسها تختار منامة ترتديها، كانت نسيت تمامًا أنها أنثى في مخض أحداث حياتها غير المستقرة، أحضرت منامة بيضاء لم ترتدها منذ سنين وفردتها على الفراش مترددة هل ترتديها أم لا، نزعت المنشفة ووقفت أمام مرآة الخزانة الطولية، فنظرت إلى نفسها العارية تمامًا، سارت بعينها على جسدها شاعرة بحنين، كانت تعلم أن جسدها الأملس جميل ولكن قبل تلك الندبة العرضية في بطنها التي أفسدت الكثير من جمال الصورة، ونعومة ذراعها التي فسدت أيضا بسبب التئام كسر ذراعها القديم حيث مزق جلدها، ولكن ما زال باقي جمالها موجودًا، صدرها ما زال متناسقًا مشدودًا، وخصرها الصغير، أردافها التي زادت التفافًا وجاذبية من ممارسة الرياضة، اشتاقت إلى فخذيها الطريتين بعد أن قويتا من الجري من آن إلى آخر؛ حيث تعينها ممارسة الرياضة على أي مطاردة محتملة.

تركت جسدها وارتدت المنامة البيضاء ثم التقطت الباروكة الرجالي التي تملكها، ووضعتها على رأسها بعد أن لملمت شعرها من تحتها.

كما هي عادتها، تحب الجلوس في شرفة شقة المعادي، تطل على منظر جميل ذي هواء منعش، ذهبت مرتدية الباروكة الرجالي حتى لا يميزها أحد من على بعد، وجلست وحيدة، لم تشرق الشمس بعد، تتنفس بهدوء وتشرب مشروبها الساخن المعتاد.

****

كان اليوم الثاني في شقة المعادي، تعد العدة وتراجع أصفاد النوافذ الإضافية، الساعة قاربت العاشرةَ مساءً، ترتدي ملابس المغادرة كي تنام بها وتستيقظ فجرًا مغادرة، تغلق محبس المياه العمومي ثم تعد حقيبتها، وفجأة، تسمع طرقًا على باب الشقة، طرقًا عنيفًا للغاية، هي لا تنتظر أحدًا ولا أحد يعرف مكان تلك الشقة من الأساس ولا أحد يطرق باب منزل بهذه الطريقة الوحشية كأنه ينوي كسر الباب ويقتحم الشقة، أسرعت فأطفأت أنوار الشقة جميعها، ثم دلفت إلى غرفة النوم المظلمة وبقفزة خفيفة سندت على الكرسي المجاور للخزانة لتعتليه وتقفز متعلقة بحافتها ثم تتسلقها في ثلاث خطوات وكأنها مرت بموقف مشابه من قبل، اعتلتها ورقدت عليها لتأتي من جانبها بقطعة قماشية كبيرة معبأة بالتراب والعطن ثم غطت جسدها بالكامل، صدرها يعلو ويهبط وزاده الخوف ارتفاعًا وهبوطًا، أغلقت فمها بيدها وبدون أي نفس انسابت دموع الخوف

مختلطة بتراب سطح الخزانة، ومع كل طرقة على باب الشقة تزداد دموعها غزارة، ظل الطرق مستمرًا شديدًا.

انتهى الطرق بعد عدة دقائق لكنها ظلت معتلية الخزانة مستيقظة من بعد العشاء حتى قرب الفجر، نزلت من على سطح الخزانة أرضًا، تسير وسط الظلام تحفظ طريقها جيدًا، التقطت حقيبتها ونظرت من العين السحرية فوجدتها سوداء، سحقًا! دائما يفعل الفعل نفسه الحقير ويضع لاصقة سوداء على العين السحرية ويضعها في تلك الحيرة هل غادر أم ينتظرها في الخارج، لم يكن أمامها غير المخاطرة وهي لا تكره في حياتها كلمة غيرها، أخرجت عبوة رشاش (سلف ديفينس) من حقيبتها ووقفت وضع الاستعداد ثم فتحت الباب فجأة وبسرعة ولكنها لم تجد أحدًا!

نزعت اللاصقة السوداء من على العين السحرية وارتخت وتنفست الصعداء، ثم خرجت وأغلقت الباب من خلفها لترجع إلى شقة مدينة نصر مرة أخرى وتعيد الكرة نفسها.

****

(٣)

تصل هبة فجرًا شقة مدينة نصر مرة ثانية، وتقضي أول يوم لها نائمة دون استيقاظ وكأن الخوف الذي لاقته في شقة المعادي قد أرهق بدنها، وفي اليوم التالي تستيقظ ظهرًا تمارس بعض التمارين القلبية، تسمع بعض الأغاني القديمة، ثم صنعت بعض المكرونة بالصلصة، أكلتها ثم نامت.

في المساء تمسك محمولها مطالعة الساعة فإذا هي السادسة، تضع المحمول جانبها وتفرد ذراعيها يمينًا ويسارًا تخرج النوم والكسل من أوصالها، وبخطوات بطيئة جرَّت قدميها لتقف أمام مرآة الخزانة تنظر لوجهها، لقد بلغت الخامسة والأربعين وبدأ ظهور تقدم السن على وجهها، صنعت ابتسامة مزيفة لتتفحص تلك الانكماشات عند طرفي عينيها، ثم مسكت جلد رقبتها تشده بقوة وتتركه ليرتد بقوة، لا تدري كيف تهرب من العمر والخوف اللذين يداهمونها كل دقيقة! تحلم أن يأتي من ينقذها لقد خارت قواها وتملك منها الخوف ولا تقوى على المقاومة وسئمت من حالة الهروب التي تعيشها سواء مع نفسها أو ممن يطاردونها، إنها لا تمانع أن تخاف ولكن من حقها أن تعلم مم تخاف! أما المجهول هذا فهو أسوأ أنواع الخوف! ولكن أنى لها أن تعرف وقد اختارت الهروب!

هزت رأسها في ملل من تكرار حديثها الذي يدور في الدوائر ذاتها من سنين، ثم ذهبت إلى الحمام.

عادت فوقفت أمام خزانة ملابسها ثم أخرجت حمالة لتكبير الصدر وسروالًا من الجينز وقميصًا زهري اللون وحذاءً رياضيًّا أبيضَ كالعادة، كانت الملابس ضيقة لم ترتدها منذ فترة طويلة ولكنها فضلت أن تتمرد ولو قليلًا على الوضع الذي

فرضته على نفسها، دائمًا ما تنتابها صحوة تمرد على نفسها بعدما تشعر بالجبن والذل عندما يأتي شخص ما ليقتحم شقتها كما حدث أمس، ولكن ليس لها قوة تجابه بها أي شيء، فلا تقوى سوى على الملابس فتغيرها.

انتهت من ارتداء ملابسها، ووضعت قليلًا من مساحيق التجميل، لملمت شعرها في ربطة واحدة ثم خرجت من الغرفة تتجنب النظر إلى حوائط الشقة حتى لا ترى ذكرياتها القميئة ككل مرة، وضعت صاعقًا كهربائيًا (إليكترك) في جيب السروال الخلفي وخرجت من الشقة لتقدم على أول خطوة من خطوات التهور فهي لم تفعلها منذ سنين، داعية الله أن تعود سالمة.

قررت أن تتنزه سيرًا حتى إذا ما راقبها أحد تصبح ملاحظته أسرع والفرار بين البنايات أسهل، سارت وهي تراقب الأماكن حولها ولا تنسى الطريق من خلفها بين الفينة والأخرى، كان المكان غير مألوف بالنسبة إليها، فهي من سنين لم تخرج من شقتها في وقت مليء بالناس والازدحام فهي تنزل فجرًا وترجع فجرًا.

تصارعت الأفكار في رأسها وحيدة تسير في الشارع بغير هدى أو تخطيط، بدأت تسمع كلمات تحرشية من أولاد صغار يبدو أنهم دون العشرين، الكلمات بذيئة ومقززة لأقصى حد، لكن أسعدها أنها ما زالت مصدر جذب لذلك الجنس الآخر حتى للصغار منهم، فهي كالعمياء مضطرة أن تصطدم ببعض الأشياء حولها متألمة لتعلم أنها فقط موجودة، ظلت تمشي حتى وصلت إلى رصيف حديقة الطفل العريض، وفجأة وهي تسير جاء شيء أمام عقلها حجب عنها كل تفكير، أدارت رأسها ناحية هذا الشيء الذي تعرفة وتحبه، إنها رائحة مميزة وجدت طريقها إلى فتحات أنفها الصغير، رائحة عربة كبدة وسجق هنا أو هناك، لا تعلم أين بالضبط، تتبعت الرائحة مسحورة وسعيدة حتى وقعت عيناها عليها (عربة كبده وسجق)، تقف

كأجمل أنثى في ليلة زفافها و(الإشبينات) يتراصصن من حولها لطلب السندوتشات، ذهبت فوقفت أمام الازدحام، واندست وسط الحشد، حتى وصلت إلى هذا الرجل الذي يضرب الكبدة يمينًا ويسارًا، وقفت تستنشق الرائحة، فنظر إليها من يأخذ الطلبات وقال:

- إتفضلي يا آنسة أأمريني.

- واحد كبيروواحد صغير.

- كبدة ولا سجق؟

- كبدة.

- طحينة؟

- كتير.

قطع تركيزها صوت مرحب من جانبها:

- هبة! إزيك؟

في قلق واضح اعتلى ملامحها، نظرت إلى المتكلم بجانب عينها غير ملتفتة ولم ترد، فأكمل ذلك الشخص:

- إزيك يا هبة، مش فاكراني؟ أنا محمد حجاج صاحب أيمن أخوكي.

تذكرته من أول نظرة ولكن فكرة التحدث مع أشخاص في الشارع أوحت لها أنه متواطئ مع من يطاردونها ويشغل نظرها فقط عن شيء ما يُدبر لها الآن فنظرت يمينًا ويسارًا، ثم ردت باقتضاب:

.آه، فاكراك! ازيك يا محمد؟

- إنتي أحوالك إيه؟ ما شاء الله ما تغيرتيش زي ما انتي، زي آخر مرة شوفتك فيها، فاكرة؟

- ميرسي ربنا يخليك.

قاطعهما بائع الكبدة:

- اتفضلي يا آنسة حسابك ٤٠ جنيه.

أخذت الساندوتشات من البائع وأعطته ورقة بقيمة خمسين جنيهًا، ثم نظرت إلى محمد قائلة:

- بعد إذنك، وانصرفت.

نظر إليها محمد في ريبة، لترحيبها الجاف، خصوصًا أنه كان صديقًا مقربًا لأخيها وصديقًا أيضًا للعائلة، نظر إليها متابعًا سيرها السريع، نادى عليه عُمدة صاحب عربة الكبدة وهو يعطيه ورقة بعشرة جنيهات:

.حجاج باشا، ممكن تلحق الأمورة اللي كانت واقفة معاك تديها الباقي عشان ادتني خمسين ومشيت على طول؟

كان محمد سارحًا في جفاء هبة، أخذ عشرة الجنيهات ومضى خلفها مناديًا عليها ولكنها كانت مسرعة، نزلت في عجالة من على الرصيف لتعبر الشارع ففوجئت بسيارة آتية مسرعة موشكة على الاصطدام بها ولكن يد محمد الذي كان يلاحقها جذبتها في آخر لحظة لتنقذها من موت محقق، جذبها محمد بقوة فارتطمت به، سقط هو أرضًا وهي تماسكت ولم تسقط، نظرت هبة إلى محمد الراقد أرضًا في فزع والسيارة التي كادت تقتلها كان سائقها يطربها بأقذر السباب، صرخت هبة في محمد وهي تخرج الصاعق الكهربائي قائلة:

- أنا عارفة من الأول انك معاهم، جي تسلم عليا في الشارع وتلهيني عن العربية اللي قطراني عشان تخبطني، منك لله، منك لله...!

نظر محمد مذهولًا إلى الصاعق في يدها خصوصًا أنه أنقذها للتو، فرد قائلًا:

- إنتي مجنونة! أنا لحقتك قبل ما يخبطك يا هبة، معاهم ايه وكلام فارغ ايه!

أكمل ناهضًا:

- أنا محمد حجاج يا هبة صاحب أخوكي أيمن، إنتي شكلك مش فاكراني من ساعة ما سلمت عليكي!

أدخلت الصاعق في سروالها وانصرفت وما زالت تصرخ:

- يا أخي متنيلة فاكراك! حل عن سمايا بقى.

- هبة، أنا معرفش مالك كده ليه، أنا صاحب أيمن الله يرحمه، عمري ما هنسى يا هبة لما عملتي نفسك أختي وجيتيلي المدرسة بدل أمي عشان كان جيلي استدعاء ولي أمر وجيتي قولتلهم إن بابا وماما مسافرين وإنك جاية بدالهم، أنا عمري ما هفكر أضرك، وبعدين لو عايز أضرك أنا حافظ مكان بيتكو على فكرة وعارف انك ما عزلتيش.

توقفت عن السير واستدارت تنظر إلى محمد، الذي غلب منطقه خوفها، ووقفت تنظر إليه، ثم ابتلعت ريقها وقال في خفوت:

- طب انت عايز ايه دلوقتي يا محمد؟

- لما شفتك عند عربية الكبدة ما كنتش عايز حاجة كنت بسلم عليكي بس، لكن دلوقتي ممكن اطلب نقعد في أي مكان نتكلم شوية.

نظرت هبة حولها يمينًا ويسارًا متشككة ثم رددت:

- مش فاهمة يعني هنقعد فين؟

رفع كتفيه في لا مبالاة ورد:

- مش فارقة، بس ممكن تختاري انتي المكان لو لسه مقلقة مني.

استحسنت الضمان الذي عرضه محمد، لتتكلم مع أول شخص منذ ثلاث عشرة سنة.

****

كانت هبة تتمنى دائمًا أن تجد أي شخص للجلوس معه والتحدث كأي إنسان طبيعي، وكانت كل المقومات تشجعها على الجلوس مع محمد صديق أخيها، شخص تعرفه قبل ذلك، في المنطقة الوسطى فلم يدخل ضمن زمرة الأنذال وأصحاب المصالح، ولا هو شخص مقرب تتشكك في نواياه، شخص لا يعلم عنها شيئًا وبالفعل يعلم مكان مسكنها بحكم معرفته بأخيها قبل ذلك ولم يؤذها، اختارت هبة مقهى ستار بكس مكرم عبيد لازدحامه بالناس وجلست وحدها منتظرة محمد يحضر المشروبات، ويضعها على المنضدة، وقال:

- مين يصدق، قاعد مع هبة الزمرد بعد عشرين سنة تقريبا، عشرين ولا أكتر؟

فكرت هبة قليلا لتحسبها ثم ردت مبتسمة:

- لأ اكتر بتهيألي، آخر مرة شوفتك ساعة الموقف بتاع المدرسة ده كان عندك بتاع ١٢ سنة تقريبا، يعني عندك ٣٥ سنة دلوقتي، صح؟

- بصي الأيام بتعدي بسرعة ازاي!

نظرت إليه هبة بمرارة قائلة:

- الأيام دي أبطأ حاجة بتعدي، بس سيبك مني، قولي بتشتغل ايه؟

- أنا دكتور باطنة في مستشفى في مدية نصر، إنتي أخبارك إيه وجوزك عامل إيه؟

فزعت هبة من مكانها ناهضة تنظر حولها خائفة وهي تقول له:

- انت عرفت منين اني اتجوزت وبتسأل ليه على جوزي!

- مالك يا هبة ده سؤال عادي جدا، المنطقة كلها كانت عارفة انك اتجوزتي فبسألك جوزك عامل ايه، انت خوفتي من ايه؟ انا مش بتطقس انا بدردش زي ما سألتيني بتشتغل ايه، مش اكترمن كده! ممكن تقعدي؟

نظرت إليه متفحصة وانتابها خجل من تصرفاتها المبالغة، لتشعر بتعاطف ناحية نفسها وما آلت إليه، جلست وقالت له:

- أنا آسفة.

- لأ مفيش حاجة، بس هو فيه إيه، واضح انك مريتي بحاجات صعبة.

- شوية، بس دلوقتي أنا مطلقة في العموم ومن زمان كمان، من ١٥ سنة.

- أنا آسف، أنا ما كنتش اعرف، عشان كده سؤالي ضايقك؟

- لأ خالص، بس انا اتفاجئت إنك عارف إني كنت متجوزة.

- بس رد فعلك كان مبالغ فيه قوي انك تتفاجئ من سؤال بسيط زي ده، أنا خايف اقولك ان أكيد فيه حاجة تانية هي اللي موتراكي كده فتشكي في سؤالي!

نظرت إليه هبة في شك حقيقي وقالت:

- حاجة تانية زي إيه!

شعر محمد بشكها من طريقة كلامها فرد:

- لأ مفيش، أنا بتكلم عادي مش قصدي أي استجواب وانا معرفش أي حد من طرفك أنقله أخبارك، بس شكلك وطريقتك باين إنك متوترة جدا من حاجة!

تنفست هبة الصعداء لإحساسها بالظلم تجاهه ومحاولته لإثبات حسن نواياه مرة تلو الأخرى، فقالت له في محاولة منها لتلطيف أجواء الشك:

- أنا آسفة إن التعامل معايا ممكن يكون صعب، بس أنا حياتي دلوقتي بقت بتخليني آخد حذري من كل اللي حواليا.

- هي فعلا الناس بقت وحشة، كلنا بقينا عايشين المأساة دي.

نظرت هبة إلى محمد باستخفاف عصبي وقالت:

- كلنا! كلنا إيه! ما حدش عايش اللي انا عايشاه يا محمد، أنا بقالي ١٣ سنة فيه ناس بتطاردني في كل حتة، بقالي ١٣ سنة واقفة في مكاني، آخرهم اللي كان عايز يخبطني في الشارع لما لحقتني في آخر لحظة، وكمان معرفش مين دول وبيعملوا كده ليه! على الأقل انت لما بتتصدم في حد بتقعد فترة مخدوع فيه ومصدق انه كويس وبعدين تتصدم لما تعرف حقيقته، إنما انا الناس متفقة علي من غير أي أسباب ومعرفش مين دول، أنا بخاف اعرف أي حد لحسن يطلع من الناس دي.

أشار محمد إليها أن تهدأ متفهمًا المعاناة التي تعانيها ثم رد:

- طيب اهدي طيب شوية، أنا ما قللتش من معاناتك، انتي بس بتاخدي الكلام بمعاني كبيرة، ممكن افهم قصدك إيه؟

وضعت يدها على جبهتها وهي تزفر نفسًا طويلًا، كان إحساسًا غريبًا عليها، فانفعالها قد أراحها كثيرًا، لم تكن تدرك أن للكلام قوةً مريحة؛ أردفت بصوت منخفض:

- أنا بقالي ١٣ سنة فيه ناس بتطاردني في كل مكان، أنا شوفت عذاب كتير، أنا عاملة عمليتين بسبب حوادث حصلتلي، غير الناس اللي بتحاول تيجي تسرق شقتي ودول كتير، والناس اللي مراقباني.

عقد محمد حاجبيه وهو ينظر إلى هبة التي كانت عينها حمراء تغرغر دموعًا، كانت عينها صادقة للغاية، ألم محفور في ثنايا جفونها، رعشة حدقتيها وانقباضات شفتيها التي تدل على تردد الكلام على طرفها، ثم قال لها وهو يبتلع ريقه:

- وازاي ما تعرفيش مين دول!

- كل مرة بشوف حد من اللي بيراقبني بلاقيه مختلف مش هو نفس الشخص اللي قبله واللي خبطوني قبل كده ما شفتهومش طبعا واللي بيحاولوا يتهجموا عليا في شقتي ما بشفهومش برضو.

- ١٣ سنة ما حدش اتكرر!

هزت رأسها إيجابًا، فأكمل:

- ما بتبلغيش البوليس؟

- لأ، ما فيش حاجة ابلغ عنها، اللي بيخبطني بيجري واللي بيراقبني مش هيستنى البوليس لما يجي واللي بيجي يحاول يقتحم الشقة دايما بيمشي على طول.

رجع محمد بظهره في الكرسي مندهشًا مما سمعه، وأدرك حينئذ مخاوفها وشكوكها فيه منذ أن قابلته ثم قال:

- أنا آسف اني قولتلك "هي فعلا الناس بقت وحشة"! طب مش ممكن يكون جوزك اللي بيعمل كده، أقصد أو طليقك؟

هزت رأسها نفيًا قائلة:

- أنا وجوزي اتطلقنا في هدوء وهو كان متفهم قوي، أنا شكيت في الأول، بس انا قعدت سنة بعد ما اتطلقنا كنت عايشة في هدوء جدا لغاية لما بدأت الحاجات دي تحصلي، وبعدين هو اتجوز وخلف وعايش حياته عادي جدا ما طلعش مني بأي مصلحة، فما لوش أي مصلحة يعمل كل ده كل السنين دي خصوصا انه ما

كسبش أي حاجة من الرعب اللي انا عايشة فيه ده، ده لو افترضنا انه هو اللي بيعمل معايا كده.

أطرق محمد برأسه متفهمًا، ثم أخرج علبة سجائره ووضع سيجارة في فمه فأشعلها وهو ينظر إلى هبة سارحًا مفكرًا، فقاطعته:

- ما تفكرش، ما لهاش حل.

- أنا مش عارف أقولك ايه، بس ربنا ما جمعنيش بيكي النهارده صدفة يا هبة، ممكن يكون ربنا جمعني بيكي النهارده عشان تكون راحتك على إيدي.

- هتعمل ايه؟

- لأ انا مش هعرف اعمل حاجة، بس انا أعرف اللي يعمل، اديني فرصة لبكرا وانا هرد عليكي واقولك هنعمل ايه.

- أيوه هتعمل ايه يعني لازم اعرف برضو، تعرف حد في الداخلية؟

- لأ معرفش، أنا عارف انه من حقك تعرفي انا هعمل ايه طبعا بس مش عايز اوعدك بحاجة وما اوفيش.

حنقت هبة من طريقة محمد للغاية خاصة أنه يتعامل معها بود لا تريده وأعطى نفسه الحق في التدخل لمساعدتها دون إذنها فقالت دون تفكير:

- لأ، شكرا يا محمد، أنا مش عايزة حاجة، وما طلبتش منك حاجة، ولا توعد ولا توفي، مع السلامة.

و انصرفت بعنف مسرعة تاركة محمد في حيرة كبيرة.

******

إكمالا للدورة المعتادة، رجعت هبة إلى شقتها وغادرت فجرًا شقة الكوربة التي مكثت فيها يومين ثم منها إلى المعادي التي مكثت فيها يومين ثم رجعت مرة أخرى إلى شقة مدينة نصر في الفجر ثم نامت...

استيقظت هبة قرب الرابعة عصرًا على طرق خفيف على الباب، خرجت إلى الصالة ومالت تحت الأريكة وأخرجت عصا ثقيلة، وذهبت إلى الباب لترى من يطرقه بهذا الهدوء، ألقت نظرة من العين السحرية، فوجدت محمد حجاج واقفًا يطرق الباب بانتظام بشكل خفيف للغاية لعدم وجود جرس، فتحت الباب بهدوء، فنظر إليها محمد واقفة ممسكة العصا في يدها، فقال:

- إزيك يا هبة هو ما فيش جرس واللا إيه، إيه العصايا دي؟

لم تجب هبة ناظرة إليه في غضب واضح وصمت تام، فأدرك محمد غضبها فاستدرك:

- أنا بقالي أربع أيام بجيلك أخبط وما حدش بيفتح، أنا لقيت اللي يقدر يساعدك على حل مشكلتك.

بحواجب معقودة:

- شكرا يا محمد، أنا قولتلك مش عايزة منك أي مساعدة، وهي كانت غلطة إني قعدت اتكلمت معاك، أنا ما بحبش حد يتدخل في حياتي.

عندما أتى إليها محمد كان ملهوفًا لمساعدتها متمنيًا ذلك بحق، فله تاريخ مع عائلتها ومع أخيها ومعها شخصيًا، ولكنه الآن يرى غباء في عينيها وسوء تصرف كبير، جعله يغضب بشدة ليقول وهو يهم منصرفًا:

- شكلك مستمتعة بحياتك كده ورفضك للمساعدة بالشكل الهجومي ده دليل إن خوفك أقوى منك بكتير، وقدامك كتير لغاية لما تعرفي تتغلبي عليه والله أعلم هتتغلبي عليه أصلا واللا لأ، سلام.

انصرف محمد بسرعة ليستقل المصعد، ولكن هبة كانت تحاول غلب كلامه الذي هيج أفكارًا ألجمتها، كانت تتمنى من يأتي ينقذها من الحياة المريرة، فلِمَ ترفض الآن المساعدة وقد أتت بابَ بيتها، وبرغبة شجاعة تصارع مخاوف قوية خرج صوتها مبحوحًا:

- طب استنى.

وقف محمد الذي كان على أعتاب المصعد، ينظر إليها، فتابعت هبة:

- ممكن تقولي هتعمل إيه؟

- مش هينفع أشرحلك، لازم تشوفي الأول الشخص اللي هنروحله وتقعدي معاه وتشرحيله كل حاجة، بس ثقي إنه هيعرف يساعدك فعلا.

- ده ايه يعني ظابط، واللا حد تقيل في البلد؟

- مش الاتنين دول.

تنهدت هبة، مستسلمة عن محاولاتها المعرفة، وقالت لمحمد في طلب مفاجئ ومهين تمامًا:

- طيب ممكن محفظتك؟

- نعم!

- معلش هخاد محفظتك اخليها معايا لغاية لما أرجع.

- أنا هدهالك، بس اللي بتعمليه ده عيب بجد.

ثم أخرج محفظته ليناولها هبة، التي أخذتها ثم قالت:

- استناني على أول شارع أبو داود الظواهري وانا هجيلك هناك، ما تستنانيش تحت، هغير هدومي وأجيلك هناك.

ركب محمد المصعد وهو مقدر حجم الخوف الذي تعيشه ويجعلها تحتاط بهذه الطريقة وانصرف، تاركًا هبة في حيرة من أمرها، تنظر إلى محفظته التي لا تعلم إذا كانت ستغنيه عن إلحاق أذى بها أم لا، شعرت أن صوت الخوف يتصاعد داخلها ثانية، فهربت منه بتغيير ملابسها بسرعة.

****

بدأ الدخان في الانقشاع والرؤية بدأت تتضح.

(٤)

تجلس بجانب محمد في سيارته، قلقة للغاية؛ فهي لم تركب سيارة من زمن بعيد إضافة إلى أنها مع شخص لم تكتمل ثقتها فيه، إنه مجرد شخص كان صديقًا لأخيها، كانت كل أفعالها ضد طبيعتها المنطوية وضد كل قواعدها التي وضعتها لنفسها لتبقى آمنة من كل خطر، ولكنه أمل أتى إليها، تخاف أن ترفضه ويكون خط نهاية لكل قلقها وخوفها، كانت غارقة في أفكارها وهي تنظر من نافذة السيارة ثم لاحظت أنهما في منطقة الكوربة بالقرب من شقتها، فأفيقت من استرخائها وقالت لمحمد:

- احنا رايحين فين!

- رايحين لصاحبي اللي قولتلك عليه، هو ساكن في الكوربة.

توترت هبة للغاية وهي تراقب الشارع والسيارات والبنايات من حولها، حتى توقف في شارع بعد شارعين من شقتها، نزلت تراقب المنطقة من حولها يمينًا ويسارًا، كان محمد ينظر إليها وهو متعجب، ما زال لم يألف توترها الدائم، فأشار إليها أن تسير بجانبه ولكنها توقفت تسأله:

- انت واخدني شقة؟

- آه.

- وفاكرني هطلع معاك! كنت فاكرة هنروح مكان، كافيه مثلا؟

- لأ هو في الحقيقة ما بيقابلش حد، ولما بيقابل حد بيقابله في بيته.

- لأ أنا مش طالعة معاك يا محمد انت بتهرج، واخدني شقة انت وواحد صاحبك.

كان محمد تملل من تشككها المستمر، وليس بيده أي شيء يثبت به حسن نيته فقال بلهجة خانقة:

- هبة انا مش عارف اقولك ايه بصراحة، بس انا والله جي اساعدك، لو كنت عايز اضرك كنت ضربتك من زمان، السنة اللي فاتت مثلا أو اللي قبلها، ليه دلوقتي، انا ما كنتش مخطط اشوفك صدفة عند عربية الكبدة، مش انتي كنت مراقبة الطريق كويس زي ما شوفتك بتعملي وأنا ما كنتش جي وراكي ووصلتي لقتيني، وكمان واخدة محفظتي... مش كده؟

كان كلام محمد منطقيًّا للغاية، وجعل هبة تحتار بين تصرف عقلاني أو تستجيب لخوفها وقلقها، كانت مقاومة مخاوفها شيئًا صعبًا عليها للغاية، لأن أصعب اختيار اختارته مع نفسها كان عندما ارتدت ملابس تبرز أنوثتها منذ أيام مضت وكان اختيارًا صعبًا أيضًا، ولكن لقلة حيلتها سألت:

- محمد انت مش هتعمل فيا حاجة، صح؟

نظر إليها محمد في شفقة كبيرة فرجع إلى هدوئه وتنهد قائلًا:

- والله العظيم أبدًا، ورحمة أيمن اخوكي ولا فيه أي حاجة، يلا نطلع بقى، ممكن؟

استسلمت له فصعدا معًا إلى الشقة.

****

ابتلعت هبة ريقها بعد أن خرجا من المصعد، فما زالت تنظر حولها، ضرب محمد زر الجرس، ففُتح الباب من زاوية لم تر هبة منها الشخص الذي فتحه، ولكنه طل يحدث من بالداخل قائلًا:

- ازيك يا طنط عاملة إيه، كريم جوه؟ انا كنت قايله اني جي النهارده ومعايا ضيوف.

نظر محمد إلى هبة وأشار إليها أن تأتي، كانت اطمأنت إلى أن من في الداخل امرأة، دخل محمد وهي من خلفه دخلت خطوة ثم وقفت تنظر إلى الشقة من الداخل، كانت الشقة قديمة من شقق الكوربة كشقتها، السقف عالٍ والأثاث ليس جديدًا، نظرت إلى المرأة المسنة الجالسة التي كانت تضع أمامها طعامًا بسيطًا من خبزوجبن بالطماطم، بادلتها المرأة النظرات هي الأخرى، كل منهما يتفحص الآخر من قمة رأسه حتى أخمص قدميه حتى قاطع محمد نظراتهما:

- تعالي يا هبة.

وقفت عند حافة الغرفة تتميز بصقيع ملفت للغاية عكس أجواء الصيف المميزة لشهر يونيو، اختار محمد مقعدًا وجلس عليه ودخلت هبة لتجد كلبًا ضخمًا للغاية يرقد أرضًا في سكون، ثم نهض من مكانه متحفزًا مجرد أن رآها وبدأ زمجرة مكتومة مقتربًا منها، كانت واقفة على عتبة الغرفة مندهشة من تصميمها الذي لا يوحي بأنها غرفة عادية على الإطلاق فقد كان في مركزها حاسب آلي بشاشة كبيرة للغاية ومن فوق الشاشة ملحق بها كاميرا متطورة، وكان ذلك الشخص جالسًا أمام الشاشة الضخمة مرتديًا إحدى تلك السماعات الكبيرة على أذنيه ويقوم بعمل بعض الأشياء، نزع ذلك الجالس سماعاته ونهض من مجلسه ليشير إلى

الكلب أن يهدأ، كان شابًّا طويلًا عريضًا، جسده قوي صلب، لم يكن شعره طويلًا، مرتديًا شورت جينس وتي شيرت بولو أبيض، أشار إلى الكلب قائلًا:

- طحان، شش، اسكت ما فيش حد غريب.

أطاعه الكلب بمنتهى السلاسة ورجع مكانه جالسًا مرة أخرى.

انعقد حاجبا هبة، فلقد كان كريم هذا شابًّا صغيرًا للغاية على ما يبدو من ملامحه، وجهه غاضب معقود الحاجبين، توجه إلى محمد وصافحه بيده وسأله عن أحواله ثم أشار إلى هبة سائلًا:

- هي دي؟

هز محمد رأسه إيجابًا، ثم نظر كريم إلى هبة متفحصًا كل تفصيلة فيها، هذه التفاصيل تشكل له معاني كثيرة قبل التعامل مع أصحاب المشكلات أنفسهم، فكل صاحب مشكلة يأتيه، له شيء مميز سواء في ملابسه أو ملامحه أو حركاته، ميز ذلك الشعر الكستنائي المصبوغ والجسد الطويل، والأفخاذ القوية التي تدل على ممارسة الرياضة ولكن هذا الجمال لم يخفِ عنه نظرات التوتر الواضحة المتفحصة السريعة للمكان، حياتها من الممكن أن تكون صعبة، غير مهتمة بنفسها كمعظم الفتيات؛ فهناك بعض الشعيرات الصغيرة في منطقة الشارب وأعلى حاجبيها، حذاؤها الرياضي متسخ قديم، وحمالة الصدر الرياضية التي ترتديها، كل تلك الأشياء تدل على اهتمامها بالجري عمومًا أو اضطرارها الهرب من شيء ما في بعض الأحيان، وضع يده في جيبه ثم قال لها:

- انا اسمي كريم، انت هبة؟ محمد قاللي انك كبيرة في السن، شكلك يبان آخرك تلاتين سنة!

ازدرت هبة كلامه ونظرت باتهام إلى محمد الذي أخفى وجهه بكفه محرجًا مما قاله كريم، فردت بحدة تداوي كرامتها المخدوشة:

- هو ده اللي قلت هيساعدني يا محمد، ده عيل صغير!

تخلى كريم عن ملامح الغضب، وابتسم ابتسامة عريضة، ومد يده ليصافحها، نظرت إليه من أسفل إلى أعلى دون أن تبادله المصافحة، فقال لها:

- أنا آسف لو قلت حاجة ضايقتك، انا كنت اقصد ان شكلك صغير فعلا، بس محمد لما حكالي عنك قاللي انك اكبر منه بحوالي ١٠ أو١٢ سنة، يعني بالنسبالي أنا اكبر مني ب ٢٠ سنة، لأني عندي ٢٥ سنة، بس انتي فعلا شكلك صغير، فهمتي؟

فهمت هبة ما يقصده وإن لم يكن مبررًا لشرح منطقه بهذه الطريقة المفتقرة إلى اللياقة والذوق، فهي لا تحب أن تتحدث عن سنها، لم يزل رافعًا يده للمصافحة، فلم تشأ إحراجه أكثر من ذلك فبادلته المصافحة بتأفف غير ناظرة له، فابتسم كريم أكثروهزرأسه متفهمًا، أحضر لها كرسيًّا وأشار إليها أن تجلس، ثم جلس هو على آخروقال:

- اتفضلي يا هبة، احكيلي حكايتك.

- مش لما اعرف انت هتساعدني ازاي؟

نظر كريم إلى محمد نظرة جانبية في ضيق ورد عليها:

- لما اعرف حكايتك الأول مش يمكن معرفش اساعدك اصلا، واللا حكايتك دي سر، لو حد عرفه غيرك في حد بيتأذي غيرك؟

- لأ.

بنفاد صبر:

- يبقي تتفضلي تحكي.

كان أسلوبه خشنًا ومسيطرًا، لا تعلم لم أطاعته وبدأت في سرد الحكاية، بشكل مجمل للغاية في جملتين قائلة:

- أنا فيه ناس بتطاردني بقالي سنين، من غير ما اعرف السبب ورا ده، كل اللي بيطاردوني مختلفين عن بعض يعني مش كل مرة نفس الشخص، بيتغيروا، وكذا مرة آذوني.

عقد كريم حاجبيه للغاية، ثم نظر إلى محمد قائلًا بحدة:

- في إيه يا حجاج انت جايبلي واحدة تخنقني وتضيعلي وقتي، أنا مش فاضي، اتفضل اطلع بره.

أراد محمد أن يشرح له فقاطع بدايات كلامه قائلًا:

- اطلع يا محمد اقعد مع ماما بره عشان نخلص.

ذهلت هبة للغاية عندما وجدت محمد يطيعه ناهضًا للخروج من الغرفة، وفي أثناء خروجه مال محمد إلى أذن هبة هامسًا:

- اسمعي كلامه مهما طلب منك حاجات غريبة، صدقيني مش هيأذيكي، ده اطيب واحد هتقابليه في حياتك.

ثم وجه حديثة إلى كريم وهو يشير إلى الكلب، سائلًا:

- آخد معايا الطحان؟

رد كريم:

- في إيه يا حجاج، هو انت زيك زي الطحان واللا إيه؟

نظر إليه محمد متفهمًا وخرج من الغرفة في هدوء بدون الطحان، هبة مذهولة مما حدث، أغلق محمد الباب خلفه تاركًا هبة وكريم والطحان بمفردهم وهو ما لم يسمح لها بالاعتراض، ثم قال لها كريم مباغتة:

- بصي اللي انت حكيتيه ده هو نفسه اللي محمد حكهولي، وانا أكيد ما طلبتش اشوفك عشان تحكيلي نفس الكلام، انا عايز تفاصيل اكتر، يعني انتي متأكدة ان كل مرة حد بيأذيكي أو بيراقبك بيكون شخص مختلف ما فيش ولا مرة شخص اتكرر!

- طبعا متأكدة.

- طيب ممكن تحكيلي مرتين حصل فيهم حد راقبك أو حد آذاكي بس بتفصيل أكتر.

- مش لما اعرف انت هتساعدني ازاي الأول، قبل ما احكيلك تفاصيل حياتي كده.

- مممممم بصي الطريقة اللي هساعدك بيها، ما ينفعش اقولهالك لازم تشوفيها على طول.

- يعني ايه!

- احكيلي وانا اوريكي، بس قبل ما تحكيلي أنا عايز ألمسك وانت بتحكي.

نهضت هبة واقفة ونظرت إليه بارتياع، وصرخت:

- محمد يا محمااااد.

دخل محمد الغرفة مسرعًا فوجد هبة واقفة وكريم مازال جالسًا فسألهما:

- فيه إيه!

رد كريم حانقًا:

- بقولها احكيلي بس لازم ألمسك الأول.

نظر محمد إلى هبة قائلًا:

- هبة مش أنا قولتلك اسمعي كلامه، حتى لو طلب حاجة غريبة.

قالت هبة في انفعال:

- يعني إيه يلمسني ده مجنون ده واللا إيه.

قال محمد متوترًا:

- هبة ما تكبريش الموضوع، هو مش قصده حاجة غلط، اديله صباع رجليكي واللا ودانك أو أي حتة يلمسها انتي شايفة ان مش عيب ان حد يلمسها وخلاص.

- أيوه ليه أصلا، يعني إيه...!

قاطعهما كريم بحدة:

- وبعدين! أنا بدأت أتخنق، ما تنجزوا.

توتر الوضع وشعر الطحان بذلك التوتر فقام من مكانه مزمجرًا، فأشار إليه كريم أن يجلس، فأكملت هبة بانفعال:

- تتخنق من إيه، والتاني يقولي اديله صباع رجليك، انتو مرضى واللا إيه.

نظر كريم إلى محمد قائلًا:

- انت غريب برضو صباع رجلها إيه اللي تدهولي.

نظر كريم إلى هبة قائلًا:

- بصي عشان ما نضيعش وقت بعض اكتر من كده، أنا موقف الجيم علشانك، مش هتفهمي أي حاجة غير لما تسمعي الكلام وتجربي، خليني امسك صباع إديكي الصغير أو ممكن بلاش أمسكه، حطيه على كف إيدي من فوق وأنا مش همسكه خالص وده مش عيب وكمان مش هيضرك في أي حاجة ولو اللي قولتهولك بعد كده ما عجبكيش امشي وما تجيش هنا تاني.

نظرت هبة إلى محمد الذي هز رأسه في إيجاب، ثم نظرت إلى كريم الذي أشار إلى الكرسي وتابع:

- اتفضلي اقعدي.

انسحب محمد من الغرفة بهدوء وأغلق الباب من خلفه، جلست هبة مرة أخرى أمام كريم وتقابلت رُكبهما غير متلامسة، وضع كريم كفه على ركبتيه، ثم ضمت هبة أصابعها جميعًا معًا ما عدا الأصبع الصغير، الذي وضعته أعلى كف كريم، نظرت إليه ونظر إليها ثم بدأت في الحديث:

- مرة من حوالي خمس أو ست سنين كده...

قاطعها كريم بإشارة من يده للتوقف ثم فتح درج المكتب وأخرج موزة نزع قشرتها وقضمها، ثم أشار إليها أن تكمل، فنظرت إليه هبة بارتياب من تصرفه غير المألوف ولكنها أكملت:

- مرة من حوالي خمس أو ست سنين كده كنت راجعة بيتي كان الوقت متأخر بالليل، وانا ماشية حسيت ان فيه حد بيراقبني كدبت نفسي في الأول وبعدين لما بصيت ورايا، اتأكدت إن فيه عربية قطراني فعلا ولما بدأت أجري عشان...

قاطعها كريم دون أن ينزع أُصْبُعَها:

- الموضوع حصل اكتر من مرة، إن حد يراقبك يعني؟

- اه بس المرة اللي بحكيلك عنها دي حصلي حاجة زيادة.

- تمام كملي.

- لما اتأكدت ان فيه عربية قطراني فعلا وبدأت أجري منه جري ورايا بالعربية بس انا عرفت أهرب منه، بعدها بكام شارع وأنا بعدي ظهرلي فجأة وخبطني وساعتها حصلي شرخ في الحوض.

كريم ما زال يحدق فيها صامتًا ثم سألها والموزة تملأ فمه:

- مش ده اللي حصل انتي نسيتي واللا إيه! فيه حاجة وقعت منك في وسط الشارع وانتي بتعدي وطيتي تجبيها فجت عربية خبطتك فحصلك شرخ في الحوض، صح؟

اندهشت هبة واسترجعت أصل القصة بعد أن اختلطت عليها مع موقف آخر حدث لها، فاتسعت حدقتا عينيها للغاية وفتحت فمها بذهول، وقالت:

- انت، انت عرفت ازاي! أيوه صح ده اللي حصل.

- عايزك تغمضي وتركزي وتحاولي تشوفي الراجل اللي كان سايق العربية.

أغمضت لثوان، ثم هزت رأسها نفيًا وقالت:

- لأ مش فاكرة خالص.

- طيب كملي، المرة التانية.

- المرة التانية كنت نازلة من بيتي، فلقيت...

قاطعها كريم:

- المرة اللي بتحكيها كانت قبل الحكاية الأولانية بسنين؟

اندهشت هبة عندما سمعت كريم، فاتسعت حدقتا عينيها من جديد، وقالت:

- أنت بتعرف ازاي يعني!

- شكلك كان أصغر بشوية عن الحكاية الأولى حتى لون شعرك وقصته شكلهم أقدم ومختلف.

نزعت أصبعها من على كفه ورجعت بمقعدها إلى الخلف وهي تنظر إليه بذعر، فكل كلامه صحيح تمامًا، أشار إليها كريم أن تهدأ وقال:

- اهدي انا عارف انها حاجة غريبة، أي حاجة هتحكيها بشوفها مدام لامسك، بشوفها بكل تفاصيلها اكني طيف بيحوم حواليكي بشوف حتى الحاجات اللي انتي ما بصتيش عليها وقت الحكاية اللي بتحكيهالي، اقدر اشوف اللي كان وراكي واللي كان قدامك واللي كان تحتك، بس لوكدبتي، ما بشوفش حاجة خالص.

- إيه الجنان ده، انت جايبني تهزر معايا!

- محمد ما جبكيش هنا، غير عشان فعلا هو عارف إني اقدر اساعدك، انا ممكن اشوف حاجات انتي نفسك ما ختيش بالك منها وانتي عيشاها.

- وايه اللي يخليني أصدقك؟

- هقولك، في الحكاية الأولى كنت نازلة من شقتك وتقريبًا الشقة دي في مدينة نصر تقريبا، صح؟ لأني بشبه على المنطقة، وما كنتيش صابغة شعرك أحمر زي دلوقتي.

غير مصدقة قالت:

- صح هي في مدينة نصر فعلا وما كنتش صابغة شعري فعلا، طيب ممكن أكملك الحكاية التانية وتقولي تفاصيل اكتر، عشان اصدقك اكتر يعني.

- اتفضلي.

عادا إلى الوضع الأول، فوضع كريم يده على ركبتيه ولامسته هبة بأُصْبُعِها الصغير وأكملت حكايتها:

- وانا نازلة من البيت، لقيت واحد في وشي اول ما نزلت، شافني وشوفته وقربت منه قوي قام مطلع مطوة من جيبه وغرسها في جنبي.

نظر إليها كريم طويلًا بعد أن انتهت من الحكاية، ثم قال في هدوء صارم:

- إيه الهبل ده، ما فيش حاجة من اللي قولتيها دي حصلت غير إنك نزلتي من العمارة لقيتي واحد واقف.

رجعت هبة إلى الخلف خائفة، وهي تضع يدها على فمها مذعورة وظلت تكرر:

- مش ممكن، مش ممكن!

- ممكن تهدي شوية.

- انت بتعرف تعمل إيه كمان؟

- لأ، أنا مش سوبر هيرو، أنا بشوف الحكاية معاكي بس، ممكن بقى تحكيلي الحكاية التانية بجد؟

أومأت إيجابًا مبتلعة ريقها ولامست يده وأكملت بصوت خافت وكلمات متقطعة:

- كنت نازلة من بيتي لقيت واحد زي ما يكون مستنيني، أول ما شوفته وقفت لقيته بصلي، ولما خوفت وطلعت اجري على البيت وهو جري ورايا كان بيطلع ورايا السلم بس انا سبقت، قدرت افتح الباب بسرعة وقفلت بس هو ما حصلنيش.

نظر كريم طويلًا إلى هبة، ورفع يده من على ركبته وتنهد تنهيدة طويلة، ناظرًا إليها بتمعن طويل، ثم نهض من مكانه قائلًا:

- استنيني دقيقة.

نهض كريم وخرج من الغرفة، فقالت له:

- طب هتاخد معاك الكلب؟

- لأ ما تخافيش مش هيعملك حاجة.

خرج من الغرفة وأحكم غلق الباب من خلفه جيدًا، ليجد محمد جالسًا مع أمه يشاهدان التلفاز معًا، أشار إليه أن ينهض ودخلا الشرفة معًا ثم أغلق بابها جيدًا حتى لا يسمعهما أحد، ثم قال لمحمد بعصبية:

- انت بتستعبط يا محمد، جايبلي واحدة مجنونة وتقولي أساعدها، أعملها إيه دي! دي بيتهيألها ان فيه ناس بتطاردها ودي كلها حاجات عادية جدا ممكن تحصل مع أي حد، حكتلي ان مرة في عربية خبطتها ودي حادثة ممكن تحصل لأي حد والحكاية التانية كانت نازلة من عمارتها لقت حد مستنيها تحت العمارة فجري وراها لغاية لما طلعت شقتها تاني، فاكر الحكاية دي واللا أفكرك بيها؟

نظر إليه محمد مستغربًا وسأل:

- وانا افتكرها منين! أنا معرفش حاجة عن هبة من سنين عشان افتكرلها أي حاجة.

- ركز يا محمد، انت ما رحتلهاش قبل كده عند البيت من سنين كتير وأول ما شافتك طلعت تجري وانت جريت وراها؟

رجع محمد إلى الخلف مشدوهًا وقال:

- فعلا بابا مرة قالي اروح اطمن عليها وفعلا جريت اول ما شافتني وطلعت ورارها عشان اطمنها بس ما لحقتهاش، من ساعتها وانا قولت مش هفكر ازورها أو اطمن عليها تاني، بس مش معقول، طب اسمع حاجات تانية منها يمكن دول صدفة.

- مش محتاجة يا حجاج، أداءها المتوتر ورعبها الأوفر والشك اللي انت قولتلي انها بتتعامل بيه معاك، واضح ان عندها مشكلة نفسية.

أمسك محمد جبهته مصدومًا، وفكر كيف سينزع نفسه من هذا الموقف المحرج، خصوصًا أنه أكد لها أنه سيساعدها ويمد لها يد العون، فكيف يتخلى عنها بهذه النذالة! فنظر إلى كريم وقال:

- طب وهنعمل ايه دلوقتي، هنقولها إيه، دي أكيد مش هتصدق أنها بيتهيألها.

رد كريم في حيرة:

- أكيد، خش قولها وخلصني من الحوارده، أنا أصلا مظبط سفرية بعد بكره وما كنتش عايز حاجة تعطلني.

- لأ أنا مش هعرف طبعا، ممكن تقولها انت؟

- طيب ماشي، أنا ما عنديش مشكلة، بس ما تجبليش حد بعد كده من غير ما تتأكد ان عنده مشكلة حقيقية أنا مش دكتور نفساني يا محمد.

دخل كل من كريم ومحمد الغرفة مرة أخرى، ليجدا هبة جالسة مكانها تنظر إلى الكلب في ترقب وخوف فجلسا أمامها وقال:

- مالك؟

ابتلعت ريقها وردت:

- ما فيش، ها هتعمل ايه؟

أخذ كريم نفسًا عميقًا وقال:

- الحقيقة اننا مش هنعمل أي حاجة، اللي انت حكتهولي كله حاجات ما بتدلش على ان فيه حد بيطاردك او بيستقصدك فعلا، دي كلها حاجات عادية ممكن تحصل لأي حد، والحكاية التانية دي ما حدش كان بيجري وراكي ولا حاجة ده كان محمد هو اللي كان جاي يطمن عليكي وانت اللي افتكرتيه حد جي يأذيكي من

غير ما تتأكدي انه حد تعرفيه أو لأ وجريتي، أنا شوفته طبعا وانتي بتحكيلي فطلعت اتأكدت منه ان هو اللي شوفته عشان كان شكله أصغر في الوقت ده، وافتكر طبعا وقاللي انه كان جي يطمن عليكي بناء على طلب من باباه فعلا.

اكتنف رأس هبة صداع قوي بعدما سمعت حديث كريم، هل كل ذلك مجرد وهم، كل هذه السنين القاسية التي عاشتها كانت من نسج خيالها، لا، لا يمكن، ألهذا كانوا كلهم مختلفين على مدار السنين، وتلك الندبات في جسدها وإحساس الخوف الذي لازمها ثلاث عشرة سنة، الهروب فجرًا من بيت إلى بيت، كل ذلك بدون طائل، فقط تهرب من خيالها، لا، مستحيل أن تكون مريضة نفسية كما يريد كريم هذا أن يوحي إليها، لا، وما بال هذا الذي كان يريد أن يقتحم منزلها في المعادي منذ عدة أيام أهو بواب العمارة يطرق الباب بهمجية! ولم يكن الأول نفسه الذي فعل ذلك! ومن كان يراقبها عندما نزلت فجرًا منذ يومين وهربت منه وغيرها وغيرها... هزت هبة رأسها يمينًا ويسارًا رافضة ما أبلغها به كريم ثم نظرت إليه وقالت له بانفعال شديد:

- لأ، أكيد فيه حاجة غلط، اللي بتقوله ده مش صح، أنا مش مجنونة ولا بيتهيألي.

أمسكت كف كريم بقوة لترغمه على مشاهدة ما ستحكيه وقالت:

- مش انت بتشوف اللي بيتحكي طيب بص بقى، من عشر أيام كده كنت نازلة من بيتي الفجر، ولقيت واحد بيراقبني بعربية جريت منه واستخبيت بين العمارات.

كان كريم ينظر إليها وبدا الأسف يتسرب على وجهه، فتابعت بعد أن فهمت نظرة عدم تصديقه لها، إنه لم يراقبها بل كان شخصًا عاديًا يسير بسيارته في

الشارع لا علاقة له بها، فأكملت وصوتها مرتعش يستدعي البكاء خوفًا من تصديق زعم كريم:

- من أسبوع كنت قاعدة في بيتي وفي حالي، وفي واحد اتهجم عليا وكان عايز يكسر الباب، ده كان بيتهيألي برضو!

كانت هبة تمسك يد كريم بقوة، فكان يشاهد تلك المشاهد التي تحكيها بكل تفاصيلها، أكدت له الحكاية الأولى نظريته بتوهم تآمر بعض الناس عليها، ولكن الحكاية الأخرى بمحاولة اقتحام أحد ما شقتها زلزلت تلك النظرية، صوت طرق باب شقتها قوي للغاية وكأن هناك من يريد كسر الباب واقتحام منزلها ليس مجرد طرق حارس العمارة... قصة غريبة تدعو إلى الشك فيما كونه عنها من أفكار، فرد عليها:

- مش عارف اقولك ايه يا هبة! هي الحكاية الأخيرة دي فعلا غريبة، خلتني أشك في اللي شوفته في الحكايتين الأولنين!

- طيب، هنعمل ايه دلوقتي؟

- بصي انا ما اتعودتش اندل مع اي حد بيستنجد بيا، بس انا مش هقدر أعملك اي حاجة غير لما أتاكد من ان فعلا فيه حد بيتعمد يأذيكي... مش مجرد أوهام في دماغك.

- هو انت ممكن تعمل ايه لو اتأكدت طيب.

- صدقيني مش هسيبك غير لما اتأكد ان مفيش حد هيجي جنبك، أنا بعمل كده من زمان، ومعاهد نفسي اني اساعد أي حد لأن ربنا وهبني حاجة مختلفة عنكو كلكو، هي طبعا بتخليني اكرهكو جدا من كمية الكدب اللي انا بشوفها فيكو بس مدام اقدر اساعد ما ينفعش أمنع حاجة مش بتاعتي عنكو.

- طيب هنعمل ايه دلوقتي برضو؟

اعتدل في مقعده مفكرًا ثم قال:

- زي ما قلتلك لازم اتأكد الأول انك مش موهومة، فهتعامل على أساس ان فيه حد بيراقبك فعلا لحد ما اثبت العكس، وعشان أعمل كده، لازم افضل معاكي طول الوقت، عشان أشوف حياتك بنفسي، واعرف اقيم الموضوع.

- طب ما انت لو معايا اللي عايز يراقبني أو يأذيني مش هيجي جنبي طول ما انت معايا.

كريم مفكرًا:

- ممم، طيب انت عندك بواب في العمارة؟

- في شقة مدينة نصر ما عنديش، بتسأل ليه؟

تعجب كريم من إجاباتها ولكنه تغاضى عن تعجبه ورد قائلًا:

- هبة أنا ما بحبش الأسئلة الكتير.

سعلت هبة في اصطناع بعدما أحرجها كريم للغاية، فتابع:

- بصي، أنا هجبلك أي اوردر اكل من اي محل قريب منك يكون الطيارين بتوعه ما لهمش يونيفورم، عشان لو في حد مراقبك مش هيركز مع حد بتاع اوردر اكل طالع العمارة، هقعد معاكي في الشقة واما نشوف هيحصل ايه بعد كده.

فكرت هبة لوهلة ثم هزت رأسها موافقة مؤيدة للخطة ثم سألته:

- وهتفضل قاعد لغاية امتى؟

- مش همشي يا هبة غير لما اتأكد، انت موهومة واللا حد قصدك، واللا عايزاني امشي قبل ما أتأكد!

- لأ ما قصدتش كده، طيب أنا هسيب الشقة الفجر، ده معناه انك هتيجي معايا؟

- ايه هتعزلي في الفجر؟

- لأ أنا هروح شقة تانية.

صعدت ملامح الغضب على وجه كريم لعدم فهمه لها وعدم وضوحها بالنسبة إليه، غير أن ثالثهما قد دخل الغرفة مقاطعًا قائلا:

- قدامكو كتير؟

نهض كريم من مكانه منتهزًا دخول محمد لينهي نقاشه مع هبة قائلًا:

- لأ جيت في وقتك، خدها استنوني بره هغير الشورت وآجي معاكو عشان نزل، أنا عندي مشوار وانتو كل واحد يروح بيته، هبة ابعتيلي عنوانك عن طريق محمد عشان اعرف اجيلك لأن ما فيش اي داعي اعرف رقم تليفونك دلوقتي، يلا اطلعوا استنوني بره.

نظر محمد إلى كريم الذي غير موقفه تمامًا عن ما اتفقا عليه، فنظر إليه كريم نظرة ذات معنى (ما لكش فيه)، ثم قاطعت هبة نظراتهما قائلة:

- طب بالنسبة للكلب!

كريم:

- ماله! أكيد مش هجيبو معايا طبعا.

****

(٥)

الساعة الثامنة مساء طرق جرس الشقة، فتحت هبة فوجدت كريم واقفا حاملًا بيتزا بحجم كبير، دلف كريم إلى الشقة يتفحصها سريعًا، شقة مهجورة لم يطأها إنسان منذ زمن، رائحة التراب عالقة في الهواء، شيء غريب لاحظه كريم أقفال حديد مضافة إلى أقفال الشبابيك العادية، وضع كريم البيتزا على أول منضدة قابلها، كانت هبة أغلقت باب الشقة ناظرة إلى كريم الذي وقف يتفحص الشقة ملتفتًا إليها سائلًا:

- هي دي الشقة اللي انت مقيمة فيها؟

أومأت هبة برأسها إيجابًا دون نطق، كان القلق يعترمها والشكوك تزداد مع كل شهيق تسحبه، لم تقترب من أي شيء عاقل من سنين وهي الآن تقف مع شخص غريب في قلب شقتها لا تعلم عنه أي شيء، كانت سارحة في أفكارها فكرر كريم جملته ثانية:

- هبة!

فزعت هبة من تفكيرها وردت:

- آه، أنا ساكنة هنا.

- إزاي، ده زي ما يكون ما حدش دخل الشقة دي من سنين!

- انت جايب بيتزا كبيرة قوي كده ليه؟

- جعان، أقعد فين وكل حتة فيها تراب بالطريقة دي!

بخجل دخلت هبة المطبخ لتحضر قطعة من القماش وتزيل التراب من على الأثاث سريعًا يجلس كريم ويفتح علبة البيتزا بادئًا أكله مشيرًا إليها بالجلوس قائلًا:

- اقعدي يلا عشان ناكل.

- لأ شكرا انا ما ليش نفس بالهنا والشفا.

- أهلك فين يا هبة، باباكي مامتك خلان أعمام؟

- أبويا وامي واخويا ماتوا في حادثة من أكتر من عشرين سنة، وما ليش قرايب غير خالتي ست كبيرة قوي وما لهاش حد جوزها مات وولادها مسافرين بره.

هز كريم رأسه في تفهم، فسألته وهي تهم بالانصراف:

- انت عايز مني حاجة قبل ما أنام.

- لأ اتفضلي.

انصرفت هبة ودخلت غرفتها فأوصدت الباب بالمفتاح، سمع كريم صوت مزلاج الباب وتعجب من تصرفها، أنهى أكله وغسل يده في المطبخ ومن ثم خرج إلى الصالة باحثًا عن تلفاز ولكن لم يجد، حاول فك الشباك لاستنشاق بعض نسائم الهواء ولكن قفل الشباك يحتاج مفتاحًا، والشرفة هي الأخرى مغلقة بالقفل، وجد نفسه وحيدًا بين عبق جدران هذا المكان، فارتمى على الأريكة ناظرًا إلى السقف الذي تشبع بالصفار... كان معتادًا على ظروف وملابسات غريبة ولكن هذه المرة شعر أن هناك شيئًا مختلفًا تجاه هبة لا يعلم كنهه والحكاية برمتها غريبة للغاية... ظل ناظرًا إلى السقف دون هدف ولكن بعض الذكريات اقتحمت رأسه مسترجعًا ذلك اليوم الذي شعر فيه أنه مميز وذلك الحديث الذي دار بينه وبين أمه حيث لن ينساه أبدًا.

****

كان غلامًا في الثانية عشرة من عمره، عام ٢٠١٠، يسير في الشارع ممسكًا بكرة قدم تحت إبطه، كان يبدو عليه الحزن، مطرقًا رأسه أرضًا يتابع ظله تحت ضوء أعمدة الإنارة الكهربائية، حتى وصل إلى العمارة التي يقطن بها.

ضرب جرس باب شقته، فتحت له أمه مرحبة به ترحاب الأبطال القادمين من معارك ضارية، فنظر إليها في سخرية ودخل في برود صامت، تجهم وجه أمه المشرق فأغلقت الباب ودخلت خلفه تسأله:

- ما لك يا كريم يا حبيبي فيه ايه!

هز رأسه يمينًا ويسارًا، وأخبرها أنه لا شيء يستحق القلق، فتابعت الأم سؤالها:

- أمال ايه اللي مزعلك كده، مش انت كنت بتلعب كورة مع صحابك؟

نظر إليها كريم ثم أجاب بصوت حزين:

- أنا سريع وبعرف ارقص بالكورة كويس، بس هما دايما بيوقفوني حكم، وانا مش بحب موضوع الحكم ده، أنا عايز ألعب.

أمسكت أمه يده بنعومة لتدعوه إلى الجلوس على أريكة الصالون ناظرة في عينيه وسألته:

- مش عايزينك تلعب عشان ما بتعرفش تلعب واللا هما شايفينك أحسن في موضوع الحكم ده؟

رد بحزن:

- لأ، هما شايفني صغير.

اتسعت عينا أمه وسألته باستغراب:

- طب وانت بتلعب مع ناس كبيرة ليه؟

- أنا كنت بلعب مع صحابي اللي قدي عادي، بس في يوم سبتهم وروحت الملعب بتاع الناس الكبار اللي بيتأجر بفلوس، قولت اروح اتفرج عليه وكده، عجبني الموضوع قوي فتقريبا صعبت على الناس اللي بتلعب عشان طولت قوي وانا بتفرج فقالوا يوقفوني حكم، وبعدين مرة في مرة بقوا بيدورا عليا مخصوص في المنطقة بالاسم عشان اقف حكم ولما زهقت وما بقتش ارضى بقوا بيدوني فلوس عشان اقفلهم حكم.

- بس ده موضوع غريب قوي، للدرجة دي عايزيك تقفلهم حكم، لدرجة انهم يدوك فلوس!

- هما بيقولوا انهم شايفني أحسن في موضوع الحكم ده، ولأني لما ببقى حكم ما بيتخانقوش مع بعض خالص، عشان بحكم كويس واللي بقوله بيمشي، بس أنا نفسي ألعب.

نظرت له أمه بتمعن أكثر وطال صمتها وهي ما زالت ممسكة بيده، ثم ابتسمت وقالت له:

- عارف يا كريم يعني إيه ناس أكبر منك بخمس وعشر سنين ترضى بحكمك؟

هز كريم رأسه نفيًا، فتابعت أمه قائلة:

- ركز، فيه عشرة بيعرفوا يلعبوا كورة أكبر منك لكن ما فيش غير واحد بس هو اللي بيعرف يحكم بينهم اللي هو انت وأصغر منهم، عارف ليه؟ بص فيه ناس كتير بتلعب لكن مش أي حد يعرف يبص للملعب كله من بره ويراقب العشرة اللي بيلعبوا كلهم واحد واحد، إنت بس، لكن اللي بيلعب ده اخره يركز مع واحد أو اتنين بالكتير، صح؟

صمت كريم ناظرًا إلى عين أمه بإعجاب شديد، حيث لفتت نظره إلى تفرده؛ فابتسم، فتركت يده بعد أن لمست إعجابه مما قالته ثم أردفت:

- إيه رأيك بقى تجبلنا آيس كريم؟

بسعادة رد كريم عليها:

- ماشي، بس مش هتخافي عليا عشان الوقت متأخر؟

- لأ هخاف، ما انت تعالى بسرعة ما تتأخرش.

أعطته أمه المال اللازم لشراء آيس كريم وخرج كريم سريعًا فرحًا محتضنًا كرته، وما حدث له بعد ذلك في الشارع أكد له تفرده وقوته.

****

بعد ساعتين، أدارت هبة مفتاح غرفتها ببطء لتخرج إلى كريم تلقي عليه نظرة فضول منها هل نائم أم مستيقظ، كانت تسير على أناملها كي لا يسمعها إذا كان مستيقظًا، وصلت الصالة ومن خلف حائط نظرت إليه خلسة فوجدته مستلقيًا على الأريكة ناظرًا إلى السقف شاخصًا ثابت العينين، انتابها بعض الخوف وهي تنظر إليه، ثم قفزت بعض أفكار الشك إلى رأسها، هل ظل مدة ساعتين مستيقظًا، ماذا فعل! لا يتركها مطلقًا ذلك الصوت الذي ينادي داخلها – إنه متواطئ معهم – لا دليل على ذلك ولا منطق وذلك هو الشك، يبزغ منتظرًا أي دليل يدعمه، الشك نبات شيطاني متجذر في نفسها ولن ينخلع إلا بالدم...

وبينما هي واقفة ناظرة إلى كريم مستترة وراء الحائط، حرك كريم يده بشكل عنيف ومباغت فجأة ليمسك شيئًا ما في الهواء، فزعت هبة وصدرت منها شهقة

مصاحبة بصرخة صغيرة، فنهض كريم من رقدته وجلس على طرف الأريكة ونظر في اتجاه صوت شهقتها وقال:

- هبة انتي صاحية!

خرجت هبة من خلف الحائط في محاولة منها أن تظهر بشكل عادي قائلة:

- أنا كنت قايمة أشرب مايه.

- بيتك غريب قوي ومش مريح لدرجة إني مش عارف انام، إنتي ازاي عايشة هنا! إيه الكآبة دي، لا شباك ولا بلكونة ولا تليفزيون وتراب في كل نفس باخده... انتي فعلا عايشة هنا؟

- لأ الحقيقة مش على طول... انا بقعد هنا يومين، وده اكتر بيت بكون دايما حريصة انه يبان ان ما حدش ساكن فيه فحتى التلفزيون مش حاطاه هنا.

.ليه؟

- ده اكتر بيت انا عشت فيه في حياتي، واكتر بيت ناس تعرف مكاني فيه فلازم يبان اني مش قاعده فيه.

كان محمد قد شرح لكريم مدى شك هذه الشخصية فيما حولها ولكن تظل صدمة الواقع دائمًا أقوى من وصفه، نفخ كريم مالًا ذلك الشك وأشاح بوجهه عنها، جلست هبة على إحدى الأرائك وهي تنظر إليه قائلة:

.أنا مش عارفة انام.

نظر إليها كريم عاقدًا حاجبيه، لم يخيل إليه أن تخرج جملة كهذه من فم امرأة في مثل سنها وقال:

- مطلوب مني إيه طيب؟

- أنا مش عارفة أنام بسببك، وجودك هنا موترني جدا.

- إنتي نسيتي اني جاي هنا عشان اساعدك؟

- لأ انا فاكرة، بس مش قادرة استوعب ان فيه حد معرفوش بايت معايا.

- عشان كده تربستي على نفسك باب الأوضة؟

بنبرة خافتة قالت هبة:

- كريم أنا بجد مش عارفة أشكرك ازاي انك قبلت تساعدني، بس لازم برضو تتفهم الخناقة اللي جوايا، انا ما فيش حد دخل بيتي من ١٥ سنة وحياتي كلها هروب وبستخبى هنا شوية وبستخبى هنا شوية... في نفس الوقت مش عايزاك تقعد في بيتي معايا، انا مش عارفة أقولك ايه واللا اعمل ايه!

تناقض كلامها ونبرة البكاء التي تتحدث بها جعلته يرأف بها:

- ماتشكرنيش على حاجة يا هبة أنا لسه ما عملتش حاجة، بس هنحل المعضلة دي ازاي دلوقتي، إنتي قلقانة مني وأنا قرفان من القعدة في بيتك، وانتي مش عارفة تنامي وانا كمان مش عارف، وحاسس اني في حبس مش بيت.

نظرت إليه هبة صامتة لا تجد شيئًا مناسبًا ترد به، هي تريد أن تنام ولكن كافيين القلق قوي لا لا يسمح لها أن تغفل...

جلس بعضهما أمام بعض صامتين، كل منهما ينتظر أن يطرح الآخر حلًا، فقالت هبة:

- على فكرة، أنا لسه مش واثقة انك ممكن تساعدني ومش واثقة ان انت ممكن تكون بتشوف الحاجة اللي بحكيهالك، ورحبت انك تساعدني مش عشان ممكن تساعدني...

نظر إليها كريم في تساؤل غضوب، فتابعت:

- بس لأني محتاجة حد يشوف اللي انا بشوفه ويصدق حكايتي حتى لو حد انا مش واثقة انه ممكن يساعدني، عارف اللي بيحصله حاجة غريبة او بتضحك من غرابتها فبيحكيها لكل حد يقابله، أنا بقى عيشتي كلها غريبة وما بحكيهاش لحد.

نظر إليها كريم في صمت دون أي تعقيب، كان يريد أن يسمع منها فقط دون قيد أو شرط، لعل استرسالها في الحديث يبرز معلومة ما تساعده على توقع أي شيء، سألته هبة بعد صمت:

- هو أنت بقيت كده ازاي؟

- كده يعني إيه؟

- كده يعني بتعرف تشوف كلام الناس وانت بتلمسهم والحاجات دي؟

نظر إليها كريم طويلًا، فهو لا يفضل أن يتحدث عن هذا الأمر مع أحد لا يعرفه جيدًا، ويبدو أن هبة اختارت أن يتحدثا معًا على أن تنام بمفردها في غرفتها، ويبدو أنها خطوة لتزيل القلق من نفسها بأن تعرفه أكثر، لذلك أجابها كريم قائلًا:

- أنا كده من وأنا عندي١١سنة تقريبا، أوزي ما تقولي أنا أدركت الموضوع ده وأنا عندي ١٢سنة.

- عرفته ازاي!

- ما بحبش أحكي التفاصيل دي لحد لسه معرفوش.

- أمال بتحكي لمين؟

- الطحان أكترحد يعرف عني حاجات.

- مين الطحان ده؟

- طحان الكلب بتاعي.

- الكلب بتاعك اكترواحد يعرف عنك حاجات!

هزكريم رأسه إيجابًا، فشعرت بغضبه من أسئلتها، فسألته:

- طريقتي ضايقتك واللا إيه؟

- ما بحبش تضييع وقت في اللف والدوران، وزي ما انتي عندك فوبيا خوف من الناس اللي ما تعرفهاش فمش بتقربي من أي حد، أنا كمان عندي فوبيا من كدب الناس اللي معرفهاش وببعد عن الكلام في أي مواضيع شخصية مع أي حد معرفوش، فهمتي.

أومأت برأسها فهمًا ثم قالت:

- فهماك، طب بلاش تحكيلي انت بقيت كده إزاي، انت تعرف محمد من امتى وهو عرف ازاي انك كده؟

- أعرف محمد من أيام المدرسة كان صاحبي في المنطقة، كنت لسه عارف الموضوع اللي فيا ده جديد وكنت سخن اني اساعد أي حد، ومحمد من أوائل الناس اللي ساعدتها ومن ساعتها وهو شايلي الجميل قوي زي ما شفتي رغم فرق العمر اللي بيني وبينه، وهو أمين بصراحة وعمره ما قال لحد، بالرغم من أني بعامله وحش.

- طب ومدام انت عارف انك بتعامله وحش، بتعامله وحش ليه!

- الموضوع اللي عندي ده بيخليني عصبي جدا، ومن خبرتي في التعامل مع الناس أيقنت ان الكدب ده اول اختيار عندكو، فده زود شكي فيكو وبعتبر أي حد بيكدب لغاية لما ألمسه واشوف حقيقة اللي بيقوله، حتى لو اعرفه زي محمد كده مثلا لما جه يحكيلي عنك مسكت ايده واتأكدت انه صادق، غير كده مقدرش

اصدقه، الموضوع بقى مرض بالنسبالي، ودي من الحاجات اللي زودت عصبيتي، بس محمد بيستحملني.

- بس فكرة ان أي حد كداب لغاية لما تلمسه دي أكيد مصعبة الدنيا عليك جدا.

ارتاح كريم في جلسته قليلًا وقال:

- إنتي مش فاهمة، حتى أمي بتكدب، الموضوع فوق الوصف.

عقدت هبة حاجبيها دون رد باستغراب واضح، فأكمل كريم:

- وأنا صغير مثلًا كانت تجبلي أرانب وتقولي دي فراخ عشان انا ما بحبش الأرانب، أول ما عرفت الموضوع اللي فيا ده وقالتلي بعدها انها فراخ وطيت على إيدها وبوستها وشوفت كل التفاصيل وهي عند بتاع الفراخ وهي بتختار الأرنب وزنته والراجل دبحه، شوفت كل حاجة، ومن ساعتها عرفت انها بتأكلني أرانب مش فراخ.

ابتسمت هبة ابتسامة واسعة من سذاجة الحكاية ولكنها سألته:

- طب وعملت إيه بعد ما عرفت انها بتكدب عليك؟

- ما عملتش حاجة طول عمري باكل الأرانب على إنها فراخ وعامل نفسي مصدق، لأني عرفت بعد كده بطريقتي إنها ما بتحبش الفراخ فقررت اقعد طول حياتي، عامل نفسي مصدق ان الأرانب فراخ.

نظرت إليه بتعجب وهي ترفع حاجبيها، ثم ضحكت بصوت عالٍ، مما جعلها تضع كفها على فمها لتكتم الصوت، فنظر إليها كريم وسألها:

. إنت بتضحكي على إيه؟

- أنا آسفه بس الحكاية هبلة قوي يعني، وبعدين أنا كان قصدي عملت ايه لما عرفت ان مامتك بتكدب عليك، مش عملت إيه مع الأرانب.

ابتسم كريم ورد:

- ماما دايما بتكدب في حاجات هبلة زي دي، بس في النهاية بتكدب زيها زي كل الناس.

- طب وهي بتكدب ليه مدام عارفة انك كده كده هتعرف؟

- ماما ما تعرفش أي حاجة من اللي فيا دي.

نظرت إليه غير مصدقة، وقالت:

- معقوله، ليه!

قام كريم من مكانه سائرًا أمامها وقال:

- الأم ما ينفعش تعرف عن ابنها أي حاجة غير عادية، هتخنقه وتخاف عليه بزيادة، وأنا ما بحبش الخنقة.

. بس هي أكيد حاسة.

أومأ برأسه إيجابًا:

- ممكن طبعا.

صمت كل منهما، وكان ذلك الرد إيذانًا ببدء صمت، قطعه كريم سائلًا:

. ممكن بس شوية مايه أشرب.

أحضرت له هبة زجاجة مياه، ثم تجرع كريم منها قليلًا، ثم سألها:

- ما قولتليش هنروح فين بكرا؟

- أنا بغير المكان كل يومين، ما بقعدش في شقة أكتر من يومين.

- فين يعني؟

- معلش أنا آسفة، ممكن أقولك بكرا واحنا رايحين.

نظر إليها طويلًا، يريد دائمًا أن يكون زمام الأمور بيده، وعدم صراحتها معه أضاق صدره، وجعل مساعدته لها حملًا يود التخلص منه، ظل ناظرًا إليها ولم يعطها أي رد فعل وإنما ظل ماسكًا زجاجة المياه يتجرع منها ويدور في الشقة، متأملًا في الحوائط هاربًا من أن يفتح معها أي حديث آخر، وظلت هبة تنظر إليه وقد علمت أنه حنق منها ومن ريبتها في أمره ولكنها ما زالت غير قادرة على إخباره أي شيء عنها بسهولة، وظل يسير في أركان الشقة، حتى ثقل جفناها ونامت مكانها.

****

استيقظت هبة لتجد نفسها في هذا المكان، لا تعلم متى جاءت هنا ولا كيف! نظرت حولها متشتتة خائفة، أرض صحراء ذات رمال ذهبية ناعمة، ولم تكن على هيئتها المعتادة التي تحفظها، بل كانت جميلة، وجهها نقي يملؤه الارتياح، مهندمة عن المعتاد، أكثر أنوثة، شعرها الأحمر الكستنائي منسدل بحرية أكبر على كتفيها وكان الهواء يحركه، ترتدي فستانًا أبيض ناصعًا عاري الكتفين وتسير حافية، وأصابع قدميها تنغرس في الرمال الباردة التي تبعث الطمأنينة إلى قلبها، جلست أرضًا تعري ركبتيها البيضاوين، وأخذت تحرك الرمال بيدها يمينًا ويسارًا حتى ظهر من تحت الرمال سواد، عقدت حاجبيها وهي تزيحها أكثر فأكثر وقطرات الخوف تملأ نفسها رويدًا وكأن هناك من يملؤه بإبريق شاي فيتصاعد ويتصاعد حتى وصل إلى حلقها فخنقها.

تركت الرمال وأمسكت عنقها الطويل متمنية أن تمنع بذلك صعود الاختناق، ولكنه ظل يتصاعد، كُتم نفسها بعد بلوغ الخوف قمته، أغمضت لتهرب مما يحدث، أنقذها ذلك الرنين الذي شق سمعها ومن بعده طرقات خفيفة على كتفها ففزعت من نومها وهي تنظر إلى كريم الذي أمسك محمولها، فأخذته من يده ونظرت إلى الساعة، إنها الثالثة فجرًا، حان وقت الانصراف، فقالت له:

- يللا عشان هنمشي.

طلبت سيارة لتقلهما، ثم ارتدت حذاءها الرياضي وتحركت بسرعة تتمم على النوافذ وأقفالها وتغلق محبس المياه، كانت تفعل ذلك بسرعة وبترتيب محفوظ وكريم يراقبها متأملًا تحركاتها ليستوعب ما يحدث، ثم أطفأت جميع الأنوار وفتحت باب الشقة وقالت له:

- اتفضل، مش كنت عايز تعرف أنا بعيش ازاي!

نظر إليها كريم مندهشًا وهو يسير أمامها ليخرج من الشقة، ومخه يعج بالأسئلة، ثم خرجت هبة وأغلقت الباب من خلفها.

****

(٦)

خرجا من المصعد وهبة تتلفت حولها متفحصة مدخل العمارة التي تبدو خالية من أول نظرة بسيطة مما جعل كريم يتعجب من تصرفاتها، نظرت إليه هبة ثم قالت بصوت خافت للغاية:

- ها هنعمل إيه دلوقتي؟

وضع كريم يده في جيبه وقال:

. هنكمل بنفس الطريقة، هتخرجي لوحدك وتركبي العربية اللي طلبتها، بس أنا هخرج قبليكي بدقيقة أو اتنين، عرفيني دلوقتي العنوان عشان نتفق هتنزلي فين.

أخبرته بالعنوان، فانعقد حاجباه مستغربًا وقال:

- ده عنوان المكان التاني اللي هتروحيه؟

هزت رأسها إيجابًا فتابع كريم وهو يمط شفتيه عاقدًا حاجبيه لشيء ما بزغ في رأسه:

- غريبة عمري ما شفتك عندنا في المنطقة قبل كده؟

- ما انا مش باجي غير في الفجر ومش بمشي غير في الفجر.

. طيب المهم، هتنزلي بعيد شوية المرة دي عن الشقة، عشان لو فيه حد بيراقبك عايزين نستفزه، عايزك توصليله رسالة (إنه مش همك انا همشي لوحدي في الشارع ومش فارق معايا)، وأنا هكون وراكي أشوف مين بيراقبك.

. تمام يعني هنزل فين؟

- انزلي عند شبرواي الكوربة، عرفاه؟ وهتمشي لغاية بيتك وأنا هكون وراكي، وأول ما اتأكد ان ما فيش حد وراكي أو مراقبك هطلعلك.

.تمام.

تركته منصرفة عنه، وهو ينظر إليها من ظهرها وهي تسير، لقد بزغ شبح ذكري ما مشوش في رأسه، وظل عاقدًا حاجبيه، ظانًّا بها شيئًا ما.

أشار إلى سيارة أجرة وركب ليصل قبلها، وفي أثناء الطريق استرجع جميع ما حدث وكل جملة دارت بينهما، كان يريد أن يصل قبل هبة حتى يراقب كل الأجواء المحيطة بها عند وصولها، بالطبع كانت الطرق فارغة فوصل الكوربة في دقائق قليلة قبل وصولها بالفعل، نزل من السيارة وسار متخفيًا عن الأنظار مستعدًا لوصولها.

نزلت هبة من السيارة تراقب الطرق من حولها ولم تر كريم، سارت بسرعة وهي تنظر خلفها كل وقت وحين كما تفعل دومًا ولكنها لم تر ما يستحق الانتباه، تابعها كريم بنظراته من على بعد حتى ابتعدت كثيرًا ثم خرج من مكمنه لاحقًا بها، سار بسرعة حتى لا تختفي عن مرمى بصره، ثم توقف فجأة عن سيره مصدومًا عاقدًا حاجبيه؛ لقد كانت محقة؛ هناك من يراقبها بالفعل كما كانت تؤكد دومًا.

****

وصلت شقتها سالمة، وجلست في توتر وقلق شديدين منتظرة كريم، بدأ حدسها يخبرها أنه الشخص الذي سيخرجها مما هي فيه، سينتشلها من مستنقع خوفها، سمعت دقات خفيفة على الباب فهبت من مكانها تفتح للطارق الذي كان كريم، فسألته في لهفة:

- ها، لقيت حد بيراقبني؟

دخل كريم الشقة وهز رأسه نفيًا ثم نظر إلى الشقة يتفحصها سريعًا، كانت كسابقتها في الأثاث القديم الذي يغطيه التراب مثل الهواء أيضًا، هز رأسه وسألها:

- ما فيش بواب هنا برضو؟

- لأ هنا فيه عم شعبان.

التفت كريم إليها قائلا:

- دي شقتك برضو واللا إيجار؟

- دي هتفرق معاك؟

. هو أنا كل ما هسألك على حاجة هتشكي فيا وتردي عليا بأسئلة، هو انا جابرك على حاجة، انا بساعدك، والطبيعي إني أكون عارف عنك حاجات كتير، لأن أي معلومة بسيطة ممكن توصلني لأي حاجة.

- لو فيه حاجة أنا شاكة انها ممكن توصلك لحاجة كنت قولتهالك، مش هخبي.

أشار كريم بأصبعه لها بعصبية ساخرة:

- ما هو لو انتي كنتي بالذكاء الكافي ما كنش بقالك سنين عايشة في خوف بتهربي من حاجات مش متأكدة من وجودها، ده كفاية الحكاية اللي حكتهالي وفي الآخر طلع ان محمد صاحب أخوكي كان جي يطمن عليكي وقعدتي اكتر من ١٢ سنة فاكراه كان واحد جي يأذيكي... يبقى انتي مش هيبقى عندك أي معلومات ممكن تفديني بيها، انتي غيري، انت بتبصي للحجات بمنظور معين فبتحكي من المنظور ده، بس دلوقتي انا اللي هسأل أسئلة وانتي تردي عليها وأنا أحاول افهم اي حاجة ممكن تفيدنا، عشان ابص للحاجات بمنظور غيرك.

ترجرجت هبة من أسلوبه الجاف والصارخ وهي تفكر في كلامه الذي اقتحم رأسها مثيرًا هزة ما لأفكارها، فيبدو أن وحدتها وعيشها منفردة وفقًا إلى نظامها؛ قد ضيق أفقها وجعلها لم تعد ترى الصورة بوضوح كما يراها غيرها من الخارج، فقاطعها مرددًا:

- الشقة دي بتاعتك واللا إيجار؟

نظرت إليه هبة وهي تهندم شعرها، ثم جلست على الأريكة وقالت بهدوء:

- دي شقة جدي وجدتي، بابا وماما اتجوزوا فيها، بس بعد كده عزلنا روحنا شقة مدينة نصر اللي كنا فيها، الشقة اللي بابا اشتراها من فلوسه بعد ما جمع فلوسها، شقة مدينة نصر دي اكتر شقة عشت فيها، بس في الشهور الأخيرة قبل موت بابا كان اشترى شقة تالتة في المعادي وكان ناوي نعزل فيها بس هما ماتوا قبلها، دول التلات شقق بتوعي اللي ورثتهم عن أبويا اللي بتنقل بينهم، من مدينة نصر للكوربة للمعادي وهكذا.

أنهت هبة حديثها وهي تسترجع مشاهد كل كلمة نطقت بها، كم من الذكريات الأليمة في هذه الحكاية المختصرة التي تلخص حياتها بالكامل، ذرفت هبة دموعها ونظرت إلى كريم الذي وجدته يمسك أُصْبُعَ كفها الصغير محاولًا رؤية ما تحكيه ولكن في خضم ما هي تتذكر وتحكي له مختصر حياتها لم تشعر به، فسحبته من يده ومسحت دمعة على وجنتها وقالت:

- صادقة واللا بكدب!

نظر إليها كريم وقال:

- لأ صادقة، بس قوليلي انتي عايشة في الروتين ده بقالك كتير؟

- سنين.

- وما فكرتيش تغيريه؟

- أغيره ليه، مدام بيحققلي الأمان اللي انا عايزاه بأقل الأضرار؟

- مممممممم... مفكرتيش ان اللي بيراقبك ده لما يشوفك وانت بتتنقلي من بيت للتاني بنفس الترتيب لمدة سنين، مش هيحفظه؟ وسايبك كده عشان تبقي تحت عينه وانتي فاكرة انه مش شايفك؟

عقدت هبة حاجبيها مفكرة ثم قالت:

- انت عندك حق فعلا بس يمكن من كتر ما انا ملخومة في الهروب، ما فكرتش في الفكرة دي قبل كده، الأمان اللي حاسة بيه بعدني عن الفكرة دي.

هز كريم رأسه متعجبًا وصمت عاجزًا عن الرد، فتابعت:

- انت عارف من أصعب الحاجات عليا أني اتنقل بين الشقتين دول دي وبتاعت مدينة نصر، بكرهم!

- ليه؟

- كل شقة منهم ليها ذكرى عندي بتخليني أبقى مش عايزة اقرب منهم حتى، بس لازم آجي.

استيقاظ كريم الفجر ثم عمل أي نشاط أمر مرهق لم يألفه، بينما تبدو هبة معتادة هذا الأمر إضافة أن لديها قدرة على تذكر الأحداث وسردها، ولكن لم يكن هذا وقته المناسب فقال:

- طيب بصي انا لما سألتك دي شقة إيجار ولا تمليك كنت عايز أعرف إجابة السؤال ده بس، بس انت دلوقتي قولتيتلي شوية حاجات كده محتاج افهمها اكتر بس أنا عايز أنام دلوقتي لأني عمري ما صحيت في الوقت ده.

شعرت هبة أن استرسالها في الكلام لم يكن في الوقت المناسب، فنهضت من مكانها وقالت:

- أنا آسفة فعلا ما خدتش بالي انك اكيد مش متعود على الروتين بتاعي، طيب ممكن انت تخش تنام على السرير في الأوضة وانا أنام هنا، خصوصا انك ما نتمش امبارح أصلا.

- تمام جدا لأني هموت وانام، فين الأوضة؟

أشارت إليه في اتجاه الغرفة، كانت تتوقع أن يرفض عرضها وينام هو في الخارج ولكنه يبدو شخصًا قليل الذوق ويفتقر إلى التعامل بشكل لائق مع الإناث، حيث دخل الغرفة وتمدد على سريرها، ظلت ناظرة إليه بعدما غرق في النوم في لحظات، كانت مترقبة وتتوقع أنه سيهجم عليها؛ عقلها يعشق البقاء في مرحلة التوتر والقلق ويطور نفسه ويصنع سيناريوهات أفلام للقتل والرعب والاختطاف والاغتصاب، أفلام واقعية للغاية بالرغم من أنها لا تستند إلى أي حبكة درامية منطقية.

تملك منها إحساسها بالخوف وتغلغلها، وبدون أي تردد أحضرت مفتاح الغرفة التي ينام فيها كريم ثم عادت إليها وبهدوء أغلقت الباب وبهدوء أكبر أوصدته بالمفتاح، فعلت ذلك دون أن يستيقظ كريم.

****

استيقظت مفزوعة، كان الكابوس نفسه الذي تراه كل يوم ولكنه تغير من يومين لا تعلم لماذا، يبدأ الكابوس بمظهر نهاري جميل رماله ناعمة باردة ثم ينقلب كل شيء إلى العكس فتستيقظ مفزوعة، نظرت إلى المحمول فوجدت الساعة

الرابعة عصرًا، نظرت إلى باب غرفة كريم ثم نهضت وفتحته بالمفتاح بهدوء وتركت الباب مغلقًا ورجعت تجلس مرة أخرى على أريكة الصالون، سمعت صوت باب الغرفة يفتح وكريم يخرج، ثم دخل الحمام وبعد برهة خرج فوجد هبة جالسة ماسكة محمولها، فقال لها:

- ازيك.

- الحمد لله، استريحت؟

- آه كنت محتاج أنام جدا، بتعملي إيه، فيسبوك؟

أغلقت ما كانت تنظر إليه ثم أغلقت الهاتف وردت:

- لأ انا معنديش لا فيسبوك ولا أنستجرام ولا أي حاجة... واتس آب بس.

تفهم ثم قال:

- أمال كنت بتبصي على إيه؟

- شوية صور قديمة ليا مع بابا وماما.

نظر إليها كريم لبرهة وسألها:

- وما عندكيش ليه فيس بوك ولا أنستجرام؟

- هاعمل بيهم إيه!

- وبتغيري رقم تليفونك على كده؟

- عرفت ازاي اني بعمل كده!

- طبيعي ما دام عايشة حياة الأفلام دي يبقى لازم تكوني بتغيري رقم تليفونك.

- مممم بغيره كل ست شهور.

نظر كريم حوله نظرة سريعة، وقال في تهكم واضح:

- وسهل اني اتوقع كمان ان مفيش واي فاي هنا، صح؟

أومأت برأسها إيجابًا، فتابع كريم:

- هو انتي مش بتشوفي الشمس؟ يعني بتنزلي الفجر أو قبل الفجر في الضلمة وبعدين تيجي تقعدي في شقة من شققك من غير ما تفتحي شبابيك أو بلكونة وبعدين تنزلي الفجر تاني، بتشوفي الشمس امتى؟

قالت هبة مفكرة:

- الحقيقة انا ما فكرتش في الموضوع ده قبل كده، بس تقريبا فعلا ما بشوفش نهار.

- واضح ان في حاجات كتير ما فكرتيش فيها قبل كده.

وضع كريم يده على رأسه مفكرًا من وصف هبة لحياتها، لم يتوقع أن يعيش شخص ما كل هذه السنين بهذه الطريقة الصعبة، وكانت الدقائق تمر صامتة وهبة تنظر إليه منتظرة أن يقول أي شيء ثم قال:

- قومي اعمللنا فطار عشان جعان.

- نعم!

- جعان يا هبة، قومي يللا.

كانت تنوي أن تعد طعامًا بالفعل ولكنها لم تتوقع أن يطلب هذا الأمر بهذا الشكل الفظ وكأنهما زوجان أو بينهما سابق معرفة، نظرت إليه بامتعاض ونهضت لتعد أي طعام وتركته.

بعد برهة من الوقت عادت هبة تحمل طبقًا عليه بعض قطع البيتزا القديمة، التقط كريم الطبق ووضعه أمامه وبدأ في الأكل، لكنها لم تأكل فقال لها وهو يلوك الطعام في فمه:

- إيه مش هتاكلي واللا إيه!

- لأ ما ليش نفس.

أومأ كريم برأسه وقال:

- أحسن لإن البيتزا بايتة ووحشة قوي.

لم يلحظ كريم نظرة القرف الصادرة من هبة من أعلى رأسه وحتى أخمص قدميه، ثم أردفت:

- وبتاكلها ليه؟

- عشان ما فيش غيرها، ممكن ابقى انزل اجيب حاجة من بره أو نطلب أكل.

تجدد تعجب هبة من أسلوبه الفظ للغاية، وعجزت تحديد ما إذا كانت هذه طبيعته أم أنه يفتعل هذا، كان منهمكًا في الطعام، وعندما أنهاه نفض يديه من بقايا الطعام وسألها:

- هبة ما تحكيلي عن غلطاتك شوية؟

- يعني إيه!

- عملتي ايه غلط في حياتك؟ أكيد عملتي حاجة غلط في حياتك عشان يحصلك كل ده.

- قصدك ان ربنا بينتقم مني عشان عملت حاجة غلط في حياتي؟

هز رأسه نافيًا وقال:

- لأ اكيد ربنا أكبر من انه ينتقم من أي بني آدم فما بالك بواحدة ضعيفة زيك وعايشة عيشتك دي، لأ انا قصدي غلطاتك مع الناس، عملتي ايه في مين يخليه مزعلك أكتر من ١٣ سنة من غير ما يعرفك ولسه مستمر في أذيتك وعلى كلامك ما خرجش من وراكي بأي مصلحة، زي ما بيقولوا كده من أعمالكم سلط عليكم.

رجعت إلى الخلف وكأن الفكرة لم ترد في خلدها من قبل، وهي تتذكر وتتذكر ولكنها لم تجد ذلك الشيء المروع الذي يسلط عليها بعد ذلك، سرحت في أفكارها ثم قالت:

- أو ممكن يكون مرض.

.يعني إيه؟

- المرض ده زي النصيب كده بيصيبك مهما عملت احتياطك لا تعرف بيجيلك ازاي ولا هتخف منه امتى ولا حتى جالك ليه.

- قصدك ان فكرة المرض دي عكس كلامي، بيصيب الإنسان من غير ما يكون أذى حد، وهياخد وقته وهيختفي؟

- آه.

- جميل طب لو افترضنا انه مرض، مش لازم تاخدي دوا؟

- مش لما اعرف ايه هو المرض الأول؟

فكر كريم في كلامها قليلًا ثم رد:

- صح، طب ولو من أعمالك سلط عليكي هتعملي إيه؟

- يبقى في الحالة دي لازم أراجع نفسي قبل أي حاجة، بس انا عمري ما أذيت حد، فكلامك كله مستبعد.

حل عليهما الصمت قليلًا ثم قاطعته:

- بس معنى كلامك انك مصدق ان فيه حد مراقبني وبيأذيني، عشان كده بدأت تفكر في النظريات دي.

- لأ، لسه مش مصدق، بس انا جي معاكي على افتراض ان فيه حد مراقبك وبفكر معاكي على الأساس ده.

- طيب بص، أنا ممكن احكيلك شوية حاجات حصلتلي في حياتي وانت شوف وقرر اللي انا فيه ده مرض واللا من أعمالي سلط عليا.

- تمام، بس أي حاجة تحكهالي، احكهالي من الأول خالص ولو تعرفي تحكيلي اليوم اللي حصل فيه الحاجة دي من أوله يبقى أحسن.

تحمست هبة للغاية، ثم وضعت كفها على ركبتها ووضع كريم بنصرهُ على كفها ليرى المشهد بعينه كأنه روح طائفة في قلب الحدث، وبدأت هبة الحديث:

- هحكيلك أول مرة حصلتلي حاجة صعبة من الحاجات الصعبة اللي حصلتلي، ده كان آخر نقاش بيني وبين جوزي وكمان كان آخر يوم بينا...

****

منذ أربع عشرة سنة، هبة أسمن قليلا، وجهها أكثر نضارة وصفاء وامتلاء والهالات السوداء لم تولد بعد في وجهها، كانت تجلس في غرفة المعيشة والصمت وحده أنيسها، كانت في شقة مختلفة عن شققها الثلاث، تنظر إلى الساعة كل ثانية وكأنها مترقبة أو منتظرة شيئًا ما، حتى جاءت السابعة مساء، نهضت من على الأريكة وذهبت إلى المطبخ، لتعد قهوة ليست لها، وقرب نهاية إعدادها، طُرق جرس الباب طرقتين متتاليتين، فتحت الباب ودلف زوجها فأشارت إليه أن يخلع حذاءه الذي يمتلئ بالتراب وقطع الطين حتى لا يلطخ السجادة، نظر إليها بملل وازدراء وخلع حذاءه، ثم جلس على الكرسي الصغير بجوار الباب، كرسي لا علاقة له بأثاث الشقة، وظيفته أن يوضع بجوار الباب مباشرة بحيث يجلس عليه بمجرد دخوله، فسألته هبة ببرود:

- هتقعد هنا واللا هتخش تغير؟

رد هذا الرجل بإرهاق وهو يخرج علبة السجائر من معطفه ويضع إحداها في فمه:

- ما انتي عارفة يا هبة هقعد فين، وما تقوليليش انك ما عملتليش القهوة.

نظرت إليه ودخلتْ تجلبُ القهوةَ من المطبخ ورجعت بها وأحضرت كرسيًّا من كراسي السفرة، وجلست أمامه تطالعه قائلة:

- طلال، أنا عايزة اتكلم معاك في موضوع مهم.

- خير يا هبة موضوع إيه انا تعبان وجسمي مكسر!

- موضوع مهم.

سحب طلال نفسًا طويلًا من السيجارة، ورشفة من القهوة وقال:

- اتفضلي.

كانت هبة تنظر إليه بعينين حمراوين غارقتين في الدموع، ولكنها قاومت تلك الغصة التي تكبر في الحلق عند البكاء وقالت:

- أنا عايزة اطلق يا طلال.

وضع طلال فنجان القهوة جانبه وقال:

- إنتي بتقولي إيه!

لم تقم هبة من مكانها ولم تجرؤ على رفع رأسها لتنظر في عينيه ولكنها قاومت أكثر قائلة:

- عايزة اتطلق يا طلال، ما فيش فايدة من جوازنا، أنا مش هاعيش حياتي كلها استناك عشان اعملك القهوة لما ترجع من شغلك، روح عيش حياتك انت وسبني أعيش حياتي.

كان طلال ينظر إليها في صدمة كبيرة، ظل ينظر إليها كثيرًا ثم قال ببطء حذر:

- هبة احنا اتكلمنا في الموضوع ده كتير قبل كده، إيه الجديد؟

- ما فيش جديد، أنا مش قادرة أعيش كده أنا حاسة إني بموت بالطريقة دي، أنا ما بخلفش وانت على طول مشغول في شغلك، ما فيش أي حاجة في الحياة.

ظل طلال مصعوقًا معقود الحاجبين، ناظرًا إليها منتظرًا أن ترفع عينيها في عينه ليستشف أي شيء ولكنها مازالت تنظر أرضًا، ثم سألها بكل هدوء:

- هتعيشي لوحدك؟

- أنا كده كده عايشة لوحدي.

صمت طلال قليلًا وسحب نفسًا من السيجارة يستجمع به قواه وقال:

. حاضر، زي ما انتي عايزة.

صمت طلال ما يقارب الدقيقة كاملة ثم قال:

- إنتي طالق يا هبة.

نهضت هبة من جلستها ووقفت تنظر إليه بعينين ملجمتين بدموع؛ كان بداخلها بركان مشاعر مختلطة تضرب كيانها كله فقالت:

- شكرًا يا طلال! أنا محضرة شنطة هدومي جوه في الأوضة ممكن تبقى تبعتهالي مع أي حد على شقة الكوربة؟

هز طلال رأسه إيجابًا دون أن يجيب، فتحت هبة باب الشقة بهدوء وخرجت، نزلت من العمارة، وصلت سيارتها، كانت تحاول كتم بكائها بكل قوتها، أدى هذا لاحمرار بياض عينها وبعض الارتشاح من أنفها، أخرجت مفاتيح السيارة من سروالها بيد مرتعشة باردة ركبت سيارتها مستنجدة بها وبمجرد أن أغلقت بابها تركت لنفسها العنان، بكت بكل قوة حتى أنها احتارت هل هذا بكاء حقيقي أم

اصطناع منها تعويضًا لكتمها بعض الدقائق، بحثت عن بعض المناديل من خلف ستار دموعها في أرجاء سيارتها فلم تجد، مسحت بعض الدموع بملابسها ثم أدارت السيارة فانطلقت.

كانت تقطن مع زوجها في حلوان، والليل قد انتصف وهدأت الأجواء وفرغت الطرق من زحامها، مما زادها شجاعة أن تسرع حتى تصل إلى ملاذها، إلى شقة جديدة في الكوربة، مع تسارع الطريق من أسفل السيارة كانت تتسارع الذكريات في رأسها، لا تتذكر غير الحزن، لا تعتبر أن حياتها فيها غير الحزن، لا تعي فرحًا يومًا ما، ولم تدركه، بحركة لا إرادية منها شغلت الراديو بأغنية حزينة لم تقدر أن تحدد مغنيتها وسط هذا الكم من الدموع والمخاط وسرعة الطريق ولكن الموسيقى الحزينة أشعلت أوتار مشاعرها وزادت من اشتعال حزنها وندمها وحسرتها، كانت قد اقتربت للغاية من بيتها في الكوربة ولكنها لم تهدئ من سرعتها، وتحت وطأة مشاعرها لم تكن في حالة تسمح بالقيادة على الإطلاق، كانت قد وصلت لأوج بكائها وقمة عدم تركيزها ولم تشاهد تلك السيارة التي تقطع الطريق آتية بكل سرعتها فكان الصدام محتومًا...

فُتحت الوسادات الهوائية بعنف في وجهها وانقلبت زاوية الرؤية وهجمت حبات الزجاج عليها مما جعلها تدافع عن وجهها بكلتا يديها، ثم سكن كل شيء!

لم تدرِ كم مر من الوقت، خرجت من النافذة التي تجاورها زاحفة، رقدت على ظهرها تنظر دموعَها التي لا تزال تغطي رؤيتها وزاد ألمها من جرح كبير في صدرها وكسور ضلوعه وعظام رسغها المتدلية خارجًا، كان الوقت متأخرًا ولم يأتِ أحد يتفقد تلك الحادثة المروعة بعد، انقلبت على بطنها زاحفة لتبتعد عن المكان، كانت تريد أن تكون وحدها حتى في أوج احتياجها إلى مَن ينقذها الآن!

زحفت مبتعدة ودخلت ذلك الشارع الجانبي وبين سيارتين رقدت تأخذ نَفَسَ راحة، خلعت سلسلة رقبتها الذهبية ووضعتها في جيبها، بدأ ينتابها إحساس لم تشعر به كثيرًا في حياتها ولكنها تعلمه جيدًا؛ إنها في طريقها إلى فقدان وعيها، تنازلت عن كبريائها وهي تنظر حولها بعينيها لتستنجد بأي مار ولكن الطريق كان خاليًا تمامًا، حتى اصطدمت بها قدما أحد السائرين فنظرت إليه بوجهها الشاحب فوجدته ولدًا يقارب العاشرة من العمر يمسك كرة قدم وينظر إليها في ذهول، بدأت تشعر أنها تلفظ أنفاسها الأخيرة ولكن قوة الألم كبلت فمها عن الاستنجاد به، ولم تكن واثقة على الإطلاق إن كان سيساعدها! لكن الشارع كان قد خلا من الناس وليس هناك معين آخر غيره، رفعت يدها في وهن إليه، فنظر إليها كثيرًا غير واثق ماذا يفعل ثم أمسكها من رسغها المكسور أولًا فأغمض عينيه لثوانٍ ثم فتحهما، أغمضت عينيها في استسلام إلى الوجع ثم فقدت وعيها لتستيقظ...

****

نزع كريم يده من على يد هبة بعنف لتقطع هبة الذكريات التي تسردها، وتنظر إليه متسائلة ولكن لم يجب كريم نظراتها فقالت:

- مالك، فيه إيه؟

نظر إليها كريم ثم قال:

- ما فيش كملي.

نظرت هبة إلى يده التي لا تلمسها وقالت:

- مش عايز تشوف اللي بحكيهولك؟

- لأ لأ كملي أنا مصدقك.

نظرت إليه باندهاش كبير؛ لموقفه المضاد لكل كلامه وتصرفاته السابقة، ولكنها تابعت:

- بعد كده أغمى عليا، معرفتش ايه اللي حصل بالظبط، صحيت لقيت نفسي في مستشفى كليوبترا، كنت صحيت بعد الحادثة دي بيومين، كنت متجبسة كان عندي قطع كبير في بطني وتلات ضلوع مكسورة ودراعي اتكسر، قعدت يوم كده على ما عرفت أستوعب اللي حصلي، كان لازم اكلم حد يجي ياخدني من المستشفى يروحني البيت وساعتها استكبرت اكلم جوزي اللي كان لسه مطلقني ويفتكرني محتاجة له تاني، فخرجت لوحدي لإني ما كنش ليا حد ممكن أعتمد عليه.

- خرجتي من المستشفى لوحدك وانتي عندك تلات ضلوع مكسورين وإيدك مكسورة!

أومأت برأسها إيجابًا، فوضع أصبعه مرة ثانية على كفها وقال لها:

- ممكن تحكيلي عملتي كده ازاي.

شرعت هبة في الحكي... لم يركريم شيئًا مميزًا في سردها وهي تخرج من باب المستشفى وتسير قليلا لتوقف سيارة أجرة ثم تركب بصعوبة ونزلت عند باب منزلها، لكن لم يكن هذا ما يريد أن يعرف تفاصيله وإنما ما كانت تشعر به، كان يرى شفتيها تتحركان لكنه لم يكن يسمعها، وإنما سبر أغوارها ليلمس مشاعرها، عندما خرجت من باب المستشفى وصدرها مجبس وتربط ذراعها المكسورة بقماشة تتدلى من كتفها، نظرت حولها باحثة عن شيء تجهله، كانت تتمنى أن ترى أي شخص يعرفها وليس بالضرورة تعرفه هي، سارت بخطوات بطيئة ومع كل خطوة يسري الألم سائحًا في أرجائها، كانت تعلم أن خطوة الطلاق ستجعلها تشعر

بوحدة ولكنها لم تكن تعلم أن الوحدة قاسية لتلك الدرجة، الوحدة منشط عام لكل المشاعر المؤلمة، فبكت بحرقة، تألمت بقوة، خجلت بكسرة، الوحدة ترفع ألم الحياة إلى أقصى مدى!

نزع كريم أُصْبُعَه وكأنه فاق من كابوس، نظر إلى وجه هبة فوجد عينيها مخنوقة، حمراء ساخنة تبردها الدموع، لم يقدر خوفها منذ أن قابلها، لا التنقل ليلًا ولا أقفال النوافذ الحديد ولا حياتها الصعبة التي تعيشها، لم يستوعب خوفها إلا الآن، آخر لمسة تلك هي ما أفهمته كل شيء، ولِمَ فضلت أن تعيش هكذا!

- الحكاية دي ما استفدناش منها أي حاجة، جوزك كان فعلا متعاون جدا في طلاقك.

ردت هبة وهي تمسح دموعها بملابسها بعد أن قال كريم تلك الجملة:

- عندك حق، هي أصلا كانت باينة، ما كنتش صدمة بالنسبة له، كان بقالنا سنين عايشين زي اتنين غرب في بيت واحد وهو أصلا كان ذكي وأكيد كان متوقعها ودي ما كانتش أول مرة اطلب منه الطلب ده، عشان كده لما طلقني على طول ما كنتش مستغربة قوي.

- وده نتيجة لمشكلة واللا ايه اللي خلى العلاقة توصل للشكل ده؟

- لأ العلاقة من الأول كانت جافة، حاولت في اول سنة آجي على نفسي وامثل دور الزوجة بس ما قدرتش اكمل.

- طب واتجوزتيه ليه من الأول؟

- والسؤال ده ليه علاقة بأي حاجة، هيفيدك وانت بتساعدني؟

سكت كريم برهة ورد بصراحة:

- لأ ده فضول.

ابتسمت هبة وقالت:

- عامة أنا اتجوزته لإني كنت عايشة لوحدي سنين وكرهت الوحدة لدرجة كانت خطيرة على حياتي.

صمت الاثنان ثم التقطت أذنه صوت جلبة غريبة تأتي من الخارج، فأدار رأسه ناحية مصدر الصوت، صمتت هبة هي الأخرى تنظر إلى الصوت الذي يأتي من الخارج، نهضا معًا ليضعا أذنهما على باب الشرفة فسألت هبة:

- دي خناقة؟

رد كريم:

- تقريبا، ما تفتحلنا البلكونة نشوف.

- لأ انا ما بفتحش البلكونة.

شعر كريم أنها لن تتنازل وتفتحها، فقال لها:

- طب بصي أنا هنزل أبص.

لم تجبه ولم تعرف ما حاجته إلى أن يعرف سر صوت تلك الجلبة، فتح كريم الباب وانصرف. جلست هبة مكانها، وشعرت بصغر سن كريم لفرحته من صوت شجار فهرول ليراه، بعد دقائق رن جرس الإنتركم فردت:

- أيوه؟

- لازم تنزلي تتفرجي يا هبة.

- ما بحبش الخناقات يا كريم.

- انزلي بس، دي مش خناقة؟

- أمال دي ايه!

****

وقفت هبة داخل مدخل العمارة تسترق النظر من بابها، وقد ارتدت ملابس وحذاء رياضيينِ، ووقفت تبحث عن كريم بعينيها فلم تجده، وصلت بنظرها إلى ناصية الشارع فوجدته مزدحمًا للغاية، ليس مزدحمًا بالسيارات وإنما بأفراد يسيرون في اتجاه واحد يملؤون الشارع كله وكأن هناك ثورة ما أو احتفالًا بالفوز في مباراة لكرة قدم.

- فيه حاجة يا أستاذة؟

فاجأها شعبان حارس البناية بسؤاله، خصوصًا أنها لم تلمحه منذ أن نزلت مدخل العمارة؛ ففزعت قافزة وهي ترد بانفعال:

- ما فيش حاجة يا عم شعبان، انت جيت منين!

- أنا طلعت من اوضتي لما لقيتك ما عرفتكيش من ضهرك اكمني مش متعود تنزلي في الوقت ده، افتكرتك حد غريب.

.لأ يا عم شعبان، ده أنا مش حد غريب.

لفت نظر عم شعبان وهبة صوت كريم الذي يقف على مسافة بعيدة منهما وهو ينادي بصوت عالٍ "هبة، يا هبة"، فلوحت بيدها بمعنى أنها رأته ليصمت، كان وقت العِشاء ولم تنزل من منزلها في مثل هذا الوقت منذ أعوام، طوال تلك الأعوام المنصرمة تتستر بالظلام وقت الفجر حيث لا بشر، بالنسبة إليها تُعدُّ القاهرة من أهدى المدن؛ فلم ترها إلا هادئة فارغة من الزحام، وهي ترى الآن عكس الذي اعتادت عليه، كل ذلك جعلها تقشعر وترتعش كأنها طفلة عارية وسط شارع ضيق بين عمارتين يرمح فيهما تيار هواء بارد في ليل شهر يناير... وكريم الذي ينادي عليها عند ناصية الشارع هو الغطاء الذي سيرحمها من قسوة البرد.

وقفت بجواره تنظر إلى الناس الذين يسيرون سعداء يهتفون وسألته:

- كريم انت بتنادي بصوت عالي كده ليه!

- لا أبدا، أنا افتكرتك مش شايفاني.

- إيه بقى كل الزحمة دي؟

- النهارده عيد مصر الحديثة، هيفضلوا يحتفلوا تلات أيام، إنتي ما تعرفيش؟

كانت نظراتها بلهاء للغاية تدل على جهلها التام بهذا العيد وقد لاحظ كريم ذلك فشرح لها:

- ده عيد اتعمل من ٣ سنين، البلد كلها بتبقى أجازة ٣ أيام وسموه عيد مصر الحديثة، ما سمعتيش عنه؟

- أسمع عنه، بس معرفش معاده امتى ولا أي حاجة عنه.

كانت منبهرة بذلك الزحام الكثيف السعيد، مال كريم على أذنها لتسمعه بوضوح وسط ضوضاء الزحام:

- تعالي نمشي معاهم شوية أكيد فيه احتفالات أكترعند القصر، يللاا!.

تحركت هبة بجوار كريم في تردد وبطء، ثم اندسا وسط الزحام يسيران مكان ما تذهب إليه تلك المسيرة حيث من الواضح أنها تسير في اتجاه القصر، وكانت هبة تنظر إلى كل شيء حولها باستغراب الأرض والسماء الحمراء من جراء المفرقعات التي بدأت تملأ الأجواء، يمينها شابات جميلات يسدلن شعرهن ويهتفن بصوتهن الرفيع بكل الحماس والفرحة، وعن يسارها كريم... كريم، كان عن يسارها ولكنها لم تجده! بحثت بعينها حولها سريعًا، لا أثر له! فثبتها الخوف مكانها، ذلك الشعور الأولي الذي يبرز لديها لاغيًا أي شعور آخر!

اصطدم بها أحد بقوة، لم تنظر إليه؛ فقد كانت مشغولة بالبحث عن كريم، انسحبت بهدوء من بحر المسيرة، أمسكت يدٌ قوية كفَّها تسحبها داخل المسيرة مرة أخرى، صرخت بدون تفكير، حاولت أن تتبين ذلك الشخص الذي يسحبها بقوة وسط الناس وهي تصطدم بهم بعنف وسمعت سبابها، تعالى صوت صراخها المستمر ثم خرجت من المسيرة لتجد نفسها أمام كريم يمسك يدها ويضع كفه على فمها لينهي صريخها.

- إنتي متأكدة إن انتي عندك أربعين سنة!

قالها بغضب شديد وهو ينزع يده من على فمها، وينظر إلى عينيها الواسعتين المليئتين بالفزع! شعر برجفة قوية بيدها التي كان يسحبها منها؛ رفعها فوجدها بيضاء شاحبة بدون دماء، شعر بالندم من غضبه منها، فترك يدها، كانت ما تزال هبة صامتة فزعة دون أن ترمش، أمسك كريم كتفها وهزها برفق وقال:

. مالك في إيه، انتي هتلبسيني مصيبة!

بلعت هبة ريقها وقالت:

- ممكن ترجعني البيت، أنا عايزة أرجع البيت، عايزة أرجع البيت...

- ليه؟

- عايزة أرجع البيت...

- ليه؟

صرخت فيه:

- ما لكش دعو اااااااة.

غضب كريم للغاية من صريخها وخوفها المتحكم فيها فقال:

- خلاص روحي لوحدك أنا ما ليش دعوة بيكي، أنا فعلا ما شوفتش حد جبان زيك!

وقفت تنظر إلى كريم وتنظر إلى الناس الغفيرة، يبدو من قلة مواجهتها للناس زادت صعوبة حتى السير بينهم لتعود إلى منزلها، لم تتحرك من مكانها وكأنها علقت وسط محيط هادئ وهي تجيد السباحة ولا ترى فائدة من سباحتها، لاحظ كريم عدم تحركها، كان يريدها أن تثق به أكثر لذلك أصر أن ينزلا معًا للسير وسط الناس، فهدأ من روعها، ثم بهدوء شديد مسك يدها مرة أخرى، ظلت هبة تنظر إليه بالثبات نفسه، حتى بعد أن مسك يدها وبدآ السير، وفضَّل كريم أن يسيرَا على أطراف المسيرة وليس في قلبها، بعد برهة من الوقت نظر إلى صدرها فلاحظ أن علوه وهبوطه قد هدأ قليلًا، فقال لها:

- انت بتلعبي رياضة يا هبة؟

أومأت برأسها إيجابًا وهي تنظر إلى يده التي تقبض كفها وقالت بهدوء:

- آه، عرفت ازاي، أنا ما حكتلكش اني بلعب رياضة!

- باين عليكي.

أراد أن يغير تفكيرها صوب أي موضوع ليصرفها عن خوفها، كانت في حالة خوف وترقب شديدين فلم تقوَ على الكلام لتستفهم منه حتى عن مناسبة هذا الموضوع الغريب، لكنها اعتبرتها مجاملة وردت عليه بابتسامة.

****

كانت هبة قد هدأت تمامًا، وقد وصلا بالقرب من القصر حيث جو عام جميل من الاحتفالات مليء بصخب الألعاب النارية، حتى وصلا عند أطراف الشارع بالقرب من متجر فودافون فتوقف وسألها:

- تعبتي؟

ردت بابتسامة:

- لأ.

- طب ما تيجي نتفرج من فوق العمارة، المنظر من فوق هيبقى تحفة.

- ما لهاش لازمة يعني.

- بالعكس المنظر من فوق، جميل فوق ما تتخيلي.

- طب هنطلع العمارة من غير إذن حد كده؟

- مش هنلاقي حد في العمارة دلوقتي كله في الشارع، وبعدين فيه واحد حبيبي اعرفه ساكن هنا، ما تقلقيش.

صعدا معًا متحسسين طريقهما في الظلام، لم يريدا إشعال إنارة السلم حتى لا يشعر أحد بهما، وصلا إلى باب سطح البناية فأخرج كريم المحمول من سرواله وأضاء نوره كي يتبينا طريقهما.

تسلل شعور من الخجل إلى نفس هبة وهما يسيران وسط الظلام مصطدمين ببعض الأشياء التي توضع على سطح أي عمارة، توقفت هبة وأمسكت كتف كريم وقالت:

- أنا عايزة أمشي يا كريم من هنا.

- تاني يا هبة!

- أنا مش خايفة من الضلمة، بالعكس أنا بطمن اكتر في الضلمة عن وانا وسط الزحمة، بس حاسة اني كبيرة على التصرفات اللي بعملها دي، ليه أتسحب في عمارة مش بتعتي واطلع ابص من فوقها على شوية ناس، انا كبرت على الحركات دي قوي.

سلط كريم الإضاءة على وجهها ناظرًا إليها تحت ستار الظلام ثم قال لها:

- أنا من ساعة ما شوفتك يا هبة وأي حاجة بعملها معاكي عشان اساعدك، أنا مش بلعب، أنا بحاول اجيهالك بس بشكل ظريف.

- واللي بنعمله ده ايه علاقته بمساعدتي!

- إنتي فيه حاجة واحدة بتحركك من ساعة ما شوفتك، عايز ألغيها فيكي من ناحيتي على الأقل عشان اعرف اساعدك بحرية.

- إيه دي!

- إنك مش واثقة فيا، أنا أخدت بالي لما كنت نايم وقفلتي الأوضة عليا بالمفتاح وعملت نفسي مش واخد بالي، لازم تثقي فيا يا هبة، مش هعرف اساعدك من غير ما تثقي فيا... وكمان لإني مش بحب حد يراجعني فلازم تعملي اللي بقولك عليه من غير ما تسأليني بعمل إيه، واوعدك لو وثقتي فيا، هحللك كل مشاكلك.

صمتت هبة غير مقتنعة بما قاله، تعلم أنها أرهقته من خوفها وكثرة الشك ولكن ما الشيء الذي يريد فعله ولا يشعر بأي حرية في تنفيذه، هزت رأسها متفهمة ثم استدركت:

- كريم انا جيت معاك لغاية هنا من غير ما اقولك اي حاجة.

- هبة انت جيتي معايا عشان خايفة ترجعي بيتك لوحدك وسط زحمة الناس مش عشان واثقة فيا.

كان حديث كريم صحيحًا مئة بالمئة، وهي تعلم ذلك، لقد أصاب كبد الحقيقة، لذا مدت يدها إليه فأمسكها وسارت خلفه مستسلمة، سارا معًا في ظلام السطح بخطى حذرة، حتى وصلا إلى الحافة، كانت هناك درجتان من الحجر يستندان إلى الحافة، صعدهما كريم بحذر حتى وقف على حافة السطح نفسها ومن خلفه تصطدم إضاءة الشارع بظهره، والضوضاء ومفرقعات الاحتفال صاخبة، نظرت إليه هبة بعينين واسعتين من خوفها أن ينزلق ساقطًا قائلة:

- إنت بتعمل ايه!

مد كريم يده إليها لكي تمسكها وتصعد معه إلى الحافة فقالت له:

- عايز ايه، أكيد مش هطلع معاك!

- يبقى مش ناوية تثقي فيا.

- هو عشان اثق فيك لازم اطلع اقف على السور!

- احنا مش هنقف، احنا هننط.

- إنت أكيد مجنون، ننط منين، انت عارف احنا في الدور الكام!

ومازال مادًا يده:

. هبة انتي أكيد شايفة اني مش مجنون، بس صدقيني هي دي الطريقة الوحيدة اللي هتخليكي تثقي فيا.

- لأ طبعا أكيد في طريقة تانية، انزل يا كريم.

- طب هقولك، اطلعي بضهرك.

- كريم انا مش هطلع في حتة، هتنزل واللا اسيبك وامشي؟

- هبة طلوعك هنا وثقتك فيا دلوقتي اني مش هأذيكي مهما حصل ممكن تكون اهم حاجة بتحصل ما بينا عشان نعرف نكمل، أنا ممكن اكون بشوف أي

حاجة بتحكهالي بس مش بعرف احس باللي انتي حاسة بيه، وهي دي الطريقة الوحيدة السريعة والمضمونة اللي تخليني اصدق انك وثقتي فيا بجد، وحياة أمي ما هأذيكي.

نظرت إليه هبة في صمت، متذكره كلمة محمد عندما كانا في منزل كريم لأول مرة "اسمعي كلامه مهما طلب منك حاجات غريبة، صدقيني مش هيأذيكي، ده اطيب واحد هتقابليه في حياتك"...

استدارت ببطء وجعلت ظهرها في مواجهة كريم وهي تصعد الدرجة الأولى من الدرجتين، دقات قلبها المتسارعة أصابت كل أطرافها برعشة أخلت بتوازنها قليلا، مد كريم يده من تحت إبطها، صعدت هبة الدرجة الثانية وكريم يقف على الحافة التي تعتبر الدرجة الثالثة والأخيرة، لف كريم يده من تحت إبطها ملتفة حول خصرها تحت صدرها مباشرة وهكذا أصبحا متلاصقين تمامًا فقال كريم في أذنها:- فاضل درجة واحدة لازم تطلعيها، كل درجة طلعتيها يعني بتثقي فيا أكتر.

كريم يشعر بدقات قلبها القوية وهو واضع يده على صدرها... "مش قادرة يا كريم" قالتها وهي تضع قدمًا واحدة على الحافة الأخيرة "دايما آخر خطوة بتبقى صعبة بس أهم حاجة" قالها كريم ليشجعها، "أنا مش عايزة أعمل كده" صاحت بها وهي تتأكد من وجود يده تقبض على خصرها بقوة وكأن النهاية قد اقتربت، رفعت قدمها الأخرى من على الدرجة الثانية "إنت مجنووووون" صرخت بها بمجرد أن رفعت قدمها الأخرى لتلمس الحافة، مال بها كريم إلى الخلف ليهويا معًا من الطابق الخامس، صرخت هبة صرخة لم تكن تعلم أن أحبالها الصوتية يمكن أن تصنعها وملأت الدنيا صراخًا، ضاع كله وسط الهتافات والألعاب النارية، فلم يسمعها أحد.

انقشع الدخان واتضحت الرؤية
ولكنها لا تذكر شيئًا البتة.

(٧)

فتح كريم باب الشقة وهو يتقدم هبة ليفسح لها الطريق وتدخل لترتمي على أول مقعد يقابلها، كانت تنظر إلى السقف بنفس متسارع، جلس كريم على المقعد الذي يجاورها وقال:

- إنتي لسه بتنهجي، الموضوع عدى عليه أكتر من نص ساعة!

نظرت إليه هبة نظرة عتاب وهي تقول:

- مش عارفة ابطل انهج وحاسة برعشة بتهز جسمي كله، عمري ما تخيلت اني ممكن اعمل كده، يا ريت تكون اتأكدت اني خلاص بثق فيك.

- لأ تمام اتأكدت خلاص، مش واخدة بالك انك ادتيني المفتاح وفتحت باب شقتك ودخلت الأول كمان.

اعتدلت في جلستها وعقدت حاجبيها مستنكرة نفسها فعلًا لم تلحظ ذلك ولكنها فعلته بمنتهى اليسر، هل هو محق في أن هذه الطريقة لمنحه الثقة فعالة إلى ذلك الحد الكبير! غير أنها استكبرت قائلة:

- أنا ما عملتش كده عشان واثقة فيك أنا بس ما كنتش مركزة.

- طبعا طبعا، هجيب مايه.

نهض كريم ليحضر ماء من المطبخ، ثم عاد ليعطيها تشرب هي الأخرى وتهدأ قليلًا ولكنه وجدها تتحدث هاتفيًا قائلة:

- كله وصل؟ طيب تمام، شكرًا جدا يا مستر رشدي، حاضر ما تقلقش عليا، مع السلامة.

أغلقت هبة الخط ونظرت إلى كريم الذي ينظر إليها ممسكًا كوب الماء، فأخذته منه وتجرعته كله ثم قال لها كريم:

- بتكلمي مين؟

- ده المحامي بتاعي.

- بس إنتي قولتيلي إن ما فيش أي حد بتتعاملي معاه في حياتك!

- أنا عندي فلوس ورث كتير وده الشخص الوحيد اللي بتعامل معاه لأني عملاله توكيل وبيخلصلي كل حاجتي، ويقولي بعد كده عمل ايه.

صمت كريم ناظرًا إليها متفحصًا ثم تابع أسئلته:

- والمحامي ده معرفش يخلصك من القصة بتاعتك دي أو يلاقيلك ليها أي حل؟

- ده اكترواحد أكدلي ان قصتي دي ملهاش أي حل قانوني.

صمتت ونظرت إليه شاعرة بهيبة ما تسيطر عليها لا تعلم لماذا تراجع نفسها إن كانت تخفي شيئًا ما، ولكنها فضلت أن تعيد الحوار إلى طبيعته قائلة:

- انت بقى عملت كده مع ناس كتير قبلي، خلتهم ينطوا من فوق السور؟

جلس بجوارها ورد:

- أي حد بحس انه مش واثق فيا لازم اعمل معاه كده، بس هما عامة ما كانوش كتير.

شربت هبة رشفة أخرى من الماء ثم تابعت:

- أنا فعلا كنت حاسة اني هموت.

استرجعت ذلك المشهد ومشاعر الخوف التي شعرت بها والهواء يضرب خيوط شعرها وخلايا جسدها كله، إحساس الانسحاب الشهير الذي يشعر به أي شخص يسقط من مكان مرتفع، شعرت به وأنفاسها انسحبت من صدرها إلى الخارج ولكن كل ذلك كان للحظة لترتطم هي وكريم بقوة بحافة عريضة عرضها قرابة مترين أسفل سور السطح مباشرة بمتر أو يزيد قليلًا.

- بس انتي ضربتيني جامد يا هبة.

قالها كريم مقاطعًا ذكرياتها، فنهضت تدخل كوب الماء المطبخ غير مصدقة أنه يشكو ضربها له بعد اكتشافها أنها لم تسقط سوى متر في الهواء ولا يعلم أنها كانت تتمنى أن تضربه أكثر من ذلك بكثير.

سمع كريم بعض الجلبة آتية من المطبخ، فدخل يتفقد أمرها، فوجدها ساقطة أرضًا مرتعشة وتنحب بدموع واهتزاز قوي، اقترب منها، وأمسك يدها ليساعدها على النهوض يسألها:

- هو فيه إيه، إيه اللي حصل؟

صرخت وهي تبعد يده عنها، قائلة:

- سبني مش قادرة أقوم، رجليا متخشبة ومتشنجة مش قادرة احركها.

جلس بجانبها وقال:

- هو فيه ايه، الموضوع ده حصلك قبل كده؟

- معرفش ده ايه، الموضوع ده كان بيحصلي على فترات متباعدة، بس بدأ يزيد ويتكرر أكتر من الأول في الفترة الأخيرة.

.طب أنا هكلم محمد أسأله في الموضوع ده وان شاء الله تبقى حاجة بسيطة.

- أنا فعلا معرفش ايه ده، بس كل مرة بسيب نفسي شوية لأني مش بعرف اقف من الوجع، نص ساعة كده بتفك وبقوم لوحدي.

نظر إليها كريم بدون رد فعل، وطلب محمد على محموله قائلًا:

- أنا هكلم حجاج برضو يشوفلنا أي حل دلوقتي، عشان ما نضيعش وقت ولأني كمان ما بحبش أقعد على الأرض، ألو يا محمد عامل إيه؟ احنا تمام، بقولك ايه، هبة رجليها قافشة ومتشنجة ومش قادرة تقوم عليها، ده ايه سببه؟ ممم... طيب ماشي... ايه! لا لا مش هينفع شوفلنا أي دوا... طب بقولك ايه هي بتقعد في الضلمة كتير وما بتشوفش الشمس تقريبا تفتكر ده ليه تأثير عليها... اه تمام... خلاص طيب هنبقى نعدي عليك ونشوف.

أغلق الخط فقالت هبة:

- ايه قالك ايه؟

تنهد كريم ثم رد:

- زي أي دكتور ما رضيش يقول حاجة ولا حتى دوا، قاللي ممكن يكون أعراض لحاجات كتير، وقاللي نعدي عليه بكرا يشوفك ويعملك شوية تحاليل.

- أمال انت قلتله "مش هينفع" على إيه؟

- كان بيقولي ادلكلك رجليكي لغاية لما تفك.

نظرت إليه متعجبة ثم أراحت رأسها أرضًا، وتشنجات أفخاذها ما زالت مستمرة، مما آلمها للغاية، فقالت له:

- كويس انك قولتله مش هينفع، بلا تحاليل بلا دكتور هي شوية وهتفك لوحدها.

- بس انا ما بحبش قعدة الأرض.

دون انتظار ردها وضع ذراعيه أسفلها وحملها من المطبخ واضعًا إياها على الأريكة بهدوء، صمت قليلًا ليلتقط أنفاسه، ثم قال لها:

- أنا فيه سفرية مظبطلها من فترة وكنت فاكر ان مشكلتك دي هتخلص بسرعة واسافر بعدها، وانا الحقيقة عايز اطلعها.

!.

!-

- أنا آسفة مش قصدي، يعني ممكن تخلص سفريتك وبعد كده نشوف هنعمل ايه.

نظر إليها كريم مفكرًا ثم قال:

- بصي احنا نعدي على حجاج بكرا الصبح بدري نعمل الفحوصات اللي قال عليها وبعد كده، تيجي معايا السفرية، هي الحكاية كلها أقل من يوم.

لم تعارض هبة عرضه على الإطلاق، وهزت رأسها إيجابا علامة الموافقة بترحاب، فقال لها كريم محدثًا نفسه مفكرًا:

- ودي ممكن تكون فرصة مناسبة إنك تطلعي نفسك من الحياة النمطية اللي إنتي عيشاها، واحنا كده كده فاضلنا يوم نقعده في الشقة دي وبعد كده نطلع على شقة المعادي، فاحنا عادي هنسافر اليوم ده ونرجع على شقة المعادي نقعد اليومين هناك، يعني بدل ما هنقضي اليوم ده هنا هنقضيه واحنا مسافرين.

سعدت للغاية بهذا السفر لا تعلم سببًا لسعادتها، أهو بسبب وثوقها فيه فعلًا بعد تلك القفزة أم هو شيء آخر، ولكنها شعرت معه بطمأنينة بالغة، فأكمل كريم:

- طيب خشي نامي واعملي حسابك، هنعدي على بيتي الأول عشان آخد الطحان معانا.

فزعت هبة من جُلِّ طمأنتها وردت:

- الحيوان الضخم اللي في بيتك ده!

- مش هقدر أسيب الطحان لوحده أكتر من كده.

بلعت ريقها عندما تذكرت شكل ذلك الكلب الضخم ثم نهضت تحاول تحريك فخذها لاستعادة حركتها الطبيعية وبدون كلام زائد تركت كريم لتدخل غرفتها وتنام.

ذهبت هبة إلى السرير تفتقر إليه؛ فلم تبذل أي مجهود ذهني كهذا منذ سنين مما جعلها مرهقة على غير المعتاد، أزاحت الغطاء وغطَّت في نوم عميق، بينما كان كريم يجلس في الخارج ينظر إليها وهي تذهب إلى فراشها مترنحة من الإرهاق وتبسم عندما دخلت تنام دون أن تغلق الباب خلفها خوفًا منه كما فعلت من قبل، فأيقن أنه قد نجح في أن يزرع ثقتها فيه.

****

(٨)

في اليوم التالي، في حوالي الساعة التاسعة صباحًا.

نزل كريم وهبة بالمصعد، كانت هبة متأنقة على غير عادتها، ارتدت نظارة شمسية أنيقة لم ترتدها منذ أكثر من عشر سنين مع بعض مساحيق التجميل الخفيفة، فلقد كانت سعيدة بالفعل ومتطلعة إلى يوم جميل.

وصل المصعد الطابق الأرضي ففتح كريم الباب لتخرج، وفي الوقت نفسه لاحظ أن رباط حذائه غير مربوط، انحنى ليربطه بحركة غريزية مما أدى إلى تعثر هبة به فتسقط أرضًا على جانبها مطلقة صيحة ألم عالية، قام كريم بمساعدتها على النهوض وبنظرة خاطفة في المكان وجده فارغًا من أي مقعد يجلسها عليه، فقال لها معتذرًا ثم نادى بصوت عالٍ:

- أنا آسف مش قصدي خالص، يا عم شعبان، عم شعبان...

خرج عم شعبان من غرفته مهرولًا وقال:

- أيوه مين!

. هات كرسي بسرعة عشان هبة تقعد.

نظر عم شعبان إلى هبة ثم نظر إلى كريم باستغراب، دخل غرفته بسرعة محضرًا مقعدًا خشبيًّا، فأجلسها عليه كريم بهدوء خوفًا من أن تتألم، ولعدم اندفاعها في الجلوس وضع يده على مؤخرتها ليبطئ حركة جلوسها، نظرت إليه هبة بكل حرج واحمرت وجنتيها، لكنها لم تقوَ أن تتحدث في وجود عم شعبان البواب، حتى جلست ثم أخرج يده من تحتها.

نظر عم شعبان بدهشة كبيرة إلى كريم الذي وضع يده على مؤخرة هبة وهي لم تبدِ أي اعتراض على تصرفه، جذبه تصرف كريم خصوصًا أن جسدها متناسق للغاية بسبب الرياضة التي تمارسها باستمرار فتمنى شعبان لو أن يفعل مثل كريم هكذا.

- إنتي كويسة؟ كوباية مايه يا عم شعبان والنبي.

قالها كريم لهبة ثم وجه طلبه إلى عم شعبان الذي خرج من دهشته ودخل غرفته محضرًا ماء... أحضر الماء فشربت هبة شربتين حتى اطمأنت ثم انصرفت مع كريم.

****

ذهبا معًا إلى منزل كريم ليحضرا الطحان، ومن هناك توجها إلى المستشفى التي يعمل بها محمد حجاج، أنهت هبة إجراء الفحوصات اللازمة التي طلبها محمد وبعد ذلك مر عليهما الميكروباص الذي انطلق بهما مسافرًا، كان يستقل الميكروباص شاب وفتاة آخرين غيرهما، هبة بجانب النافذة والطحان بينها وبين كريم ساكنًا صامتًا مما جعل هبة تطمئن إلى وجوده.

كان الوقت الظهيرة والطرق مزدحمة، وقد اعتادت هبة الظلام سنينها الماضية، ونسيت الشمس والزحام والضوضاء ولكنها كانت تنظر من النافذة مستمتعة بما يجري حولها وبمنظر الدخان، كل شيء يشعرها بالألفة والأمان بينما كان الظلام يشعرها دائمًا بقشعريرة الخوف وحتمية الهروب، استنشقت نفسًا من الدخان المحيط ثم نظرت إلى كريم فوجدته يسمع شيئًا ما بسماعات الأذن ويقضم خيارة والطحان واضعًا رأسه على فخذه في استسلام تام نائمًا، ربتت على كريم لينتبه إليها.

فنزع السماعة ونظر إليها قائلًا:

- عايزة إيه؟

كانت قد اعتادت أسلوبه الفظ وبدأت تألفه فقالت:

- تفتكر التحاليل هيطلع فيها إيه؟

أشار باستهتار قائلًا:

- أكيد أنميا حادة.

- ليه أكيد!

- استايل حياتك اللي انت عايشاه في الضلمة والأكل من بره على طول، أكيد جالك أنميا، أعتقد الانتظام على شوية فيتامينات هيحل الموضوع.

- إن شاء الله، قولي الطحان بقاله معاك كتير؟

نظر كريم إلى الطحان بشفقة ورد:

- آه كتير قوي، بس عجز الطحان وعلى طول نايم كده.

- ليه بتعامله أحسن من محمد!

- أنا بعامله أحسن من أي حد، ولازم أي بني آدم يعامل أي حيوان أحسن من أي بني آدم زيه.

عقدت هبة حاجبيها وردت:

- اشمعنى؟

- الحيوانات ما فيش فيها خيار وفقوس ولا حتى بطيخ، كلهم ثابتين على موقفهم، القطط غدارة معروفة، الكلاب أوفياء وأصحاب أصحابهم، الحمار عبد، الأسد سي السيد، ما فيش أي حاجة ممكن تغيرهم لكن البني آدم أتفه موقف يغيره في ثانية.

- مش للدرجة دي!

نظر إليها صامتًا مفكرًا في شيء ما ثم تابع كلامه:

- هبة انتي عارفة انا بشتغل ايه؟

هزت هبة رأسها نفيًا فتابع:

- استريمر.

- يعني ايه استرمير؟

- مممممممم، زي ما جيتي البيت وشفتيني كده، عندي بي سي (كمبيوتر) قوي جدا متركب عليه كاميرا وبقعد ألعب جيمس وفيه شركة بتدفعلي فلوس عشان لعب الجيمس دي واللي بيتفرج عليا وانا بلعب يتبرعلي بفلوس اقسمها مع الشركة... عارفة انا بحب اللعب جيمس ليه لدرجة اني اشتغلتها؟

- ليه؟

- بتخليني اشوف الناس بطريقة مختلفة، بطريقة أحسن، أصل انا شوفت من اللي جوا الناس كتير زي ما قولتلك، الناس بتعشق الكدب، أبسط موقف يحلوه بالكدب، أنا كنت وصلت لدرجة اني بدأت اكره الجنس البشري كله، الجيمس بتحط قواعد من الأول ما حدش يقدر يلف ويدور حواليها، اللي في فريقك عمره ما يخونك وأعدائك عمرهم ما يبقوا أصحابك، ولو أنا لوحدي مش هستنى عطف من حد، عارف من الأول ان ما حدش معايا، الأمور واضحة وما فيش مجال للكدب، وعشان كده أكتر حاجتين بحافظ عليهم الطحان وشغلي.

تفهمت هبة موقفه وحجبت نفسها عن الكلام، فليس من السهل التحدث مع شخص بداخله كل تلك التناقضات، كانت تريد أن تجادله لكنها اقتنعت أن

الأمور من وجهة نظره حتمًا مختلفة، فرجعت تنظر إلى الطريق من النافذة ولكن الشمس أزعجت مقلتيها فسألته:

- نسيت نضارتي والشمس وجعالي عينيا وعملالي صداع، معكش نضارة شمس؟

حك أنفه وقال:

- لأ معيش، بس هو وضع مؤقت زي ما محمد قال، بسبب انك معرضتيش عينكي للشمس من سنين.

نظرت إليه والخيارة التي يقضمها، فسألته في حدة غير مبررة:

- انت ليه على طول بتاكل فاكهة وخضار!

قضم الخيارة وربت على وجه الطحان ليوقظه لينزل أرضًا ثم اعتدل في جلسته وقال:

- الفاكهة والخضار مهمين جدا بالنسبالي، بسبب نقص الدوبامين عندي والدكاترة قالولي موقفهومش، عارفة ايه هو الدوبامين.

- لأ.

- ده الهرمون المسؤول عن إدمان أي حاجة وليه علاقة مهمة بالشعور بالسعادة.

هزت رأسها متفهمة وربطت بين نقص هذا الهرمون وأسلوبه الجاف وأنه لم يبتسم تقريبًا منذ أن رأته، قاطع كريم أفكارها:

- ما تنسيش تخدي حقنة الفيتامينات اللي محمد كتهالك لما نرجع من... صحيح ما سألتنيش احنا رايحين فين؟

كانت أشعة الشمس منعكسة على وجهه، لم تدرِ هبة لم الآن أعجبتها ملامحه تحت أشعة الشمس وهو ينظر إليها مع أنها تنظر إليه وتتحدث معه منذ يومين تقريبًا، ابتسمت عندما تمعنت في سؤاله فوجدت الإجابة حاضرة لأنها ببساطة شعرت بالأمان معه كما لم تشعر من سنين أو حتى كما لم تشعر من قبل، وبدون تردد قالت:

- لأ مش عايزة اعرف.

ابتسم لها كريم شاعرًا بالامتنان لما منحته من ثقة كبيرة، أعاد سماعة الأذن مرة أخرى على أذنه وأدار موسيقى هادئة ونظر إلى النافذة متذكرًا مشهدًا آخر من حياته بعد أن تحدث معها عن نقص هرمون الدوبامين وكيف يهرب من البشر وطبيعتهم الخادعة، تذكر أشياء...

****

في السابعة عشرة من عمره، كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة صباحًا وكريم يفتح باب الشقة ليدلف بهدوء متعمدًا ألا يصدر أي صوت من الممكن أن يوقظ أمه ولكن بمجرد دخوله وجدها في انتظاره متلقيًا نظرات التحفز والغضب منها، أغلق الباب ونظر إليها في صمت، فسألته أمه:

- كنت فين يا كريم؟

رد كريم في تردد واضح:

- ما انا كنت قايلك يا ماما اني...
- واحد صاحبك واقع في مشكلة ورايح تساعده، صح؟
- أيوه صح.

- هو انت اصحابك كلهم عندهم مشاكل وانت بس اللي بتعرف تحل كل مشاكل اصحابك يا كريم!
- لا دي مجرد صدفة، فيه مشاكل تانية بتحصل لأصحابي ومش بساعدهم فيها.

اقتربت منه أمه ومسكت ذراعه بقوة شديدة مقتربة من فمه تشم رائحته ولكن لم تجد أي شيء يدعو إلى القلق فسألته:

- كريم انت بتشرب مخدرات؟

ابتسم كريم بسخرية ورد:

- هو انا لو بشرب مخدرات هقولك؟

ضغطت على ذراعه أكثروصاحت بقوة:

- رد على قد السؤال.

نظر إلى أعلى في نفاد صبرورد ببرود مستفز:

- لأ.

لا تزال تمسك ذراعه بقوة وتنظر إلى عينيه غاضبة وهو يبادلها تلك النظرات المملوءة استهزاء وكأنها تبحث عن الإجابة داخل عينيه، ثم بعد برهة أشاحت بوجهها وتركت ذراعه بعنف لتجلس مكانها وهي تتنهد، فاقترب منها كريم وقال:

- ما تخافيش يا ماما، أنا عارف انك بتخافي عليا جدا وانا مش بعمل حاجة غلط، انا بجد بساعد صحابي بس.

- واشمعنا انت اللي بتساعدهم؟

- هم بيثقوا فيا.

- أيوه ليه انت بس اللي كل الناس دي بتثق فيك بتعملهم ايه يعني، ده انت ساعات في ناس ما تعرفكش بتعدي عليك تطلب منك خدمة وانت ما تعرفهاش، بتعملهم ايه؟

رفع كريم كتفيه وقال:

- معرفش، ما فيش حاجة معينة، ما بتأخرش على حد في حاجة وكمان دايما ببص للموضوع من بره فاقدر أوجد دايما حلول جديدة للمشاكل.

كانت هذه جملتها وقد غرستها في عقله (مش أي حد يعرف يبص للملعب كله من بره ويراقب العشرة اللي بيلعبوا كلهم واحد واحد) تذكرت الآن، فأمسكت أمه وجهه واغرورقت عيناها بالدموع ثم احتضته بقوة في صدرها فبادلها العناق.

****

في منطقة الكوربة، أمام عمارة هبة توقفت سيارة موديل حديث للغاية وترجل منها رجل مرتديًا نظارة وحُلة ثمينة أغلق سترتها بمجرد نزوله وفي فمه سيجارة لَمَّا يشعلها، سار بهدوء شديد ودخل العمارة ثم توقف يطالع أنحاء مدخل العمارة، جاء من خلفه بوابها، شعر به ذلك الرجل الأنيق فالتفت إليه قائلًا بثقة:

- ازيك يا شعبان؟

لم يرد عم شعبان في البداية لاندهاشه من معرفة الرجل الغريب لاسمه ثم رد:

- أهلا وسهلا يا بيه، حضرتك تعرف اسمي منين؟

نظر إليه الرجل بهدوء ثم أخرج قداحته وأشعل سيجارته وقال:

- تعرف الست اللي ساكنة هنا اللي اسمها هبة الزمرد؟

- آه طبعا بس هي ما بتجيش هنا كتير.

نفخ الرجل دخان سيجارته وقال:

-عارف، لسه بتيجي لوحدها؟

- أنت مين يا باشا؟

سحب الرجل نفسًا طويلًا من سيجارته ثم بصوت عالٍ صاح بشكل مفاجئ:

- رد يا شعبان لسه بتيجي لوحدها؟

رجع عم شعبان إلى الخلف وقد ركب الخوف أوصاله، خاصة وأن الرجل له هيبة قوية للغاية أرهبته، فلم يتردد وقال:

- هي بتيجي لوحدها بس امبارح كان معاها واحد شكله تقريبا جوزها والله أعلم.

- يعني إيه شكله جوزها! جوزها واللا مش جوزها؟

- معرفش يا باشا، بس هو كان واخد راحته قوي معاها.

- إزاي!

- النهارده وهي نازلة وقعت وكان الجدع اللي معاها ده بيحط إيده عليها من ورا لا مؤاخذة عشان يسندها وهي ما اعترضتش على اللي عمله، فعشان كده بقولك شكله جوزها ما دام سايباه يحط إيده عليها كده.

نظر الرجل الغريب إلى عم شعبان بشرود وانعقد حاجباه ثم التفت معطيًا إياه ظهره وما زال ينفث دخان سيجارته، أخرج من محفظته ورقة بثلاثمئة جنيه وناولها عم شعبان، الذي التقطها صامتًا مندهشًا غير مصدق أنه أخذ ذلك المبلغ بتلك السهولة فنظر إلى الرجل الغريب ليشكره على ذلك المبلغ ولكن الرجل كان قد انصرف في هدوء.

انصرف ذلك الرجل مخرجًا محموله وطلب رقمًا ما، وعندما رد قال له:

- أيوه يا حازم باشا، هبة اتجوزت.

****

أمام أحد الفنادق المغمورة توقف الميكروباص وترجل منه كريم وهبة والطحان، كان الوقت قد تجاوز العصر قليلًا، نظرت هبة حولها متفحصة المكان حيث يبدو هادئًا جدًّا ونسمات الهواء تأتي من حين إلى آخر، قاطع كريم سرحانها قائلا:

- استنيني.

تركها كريم ودخل الفندق الصغير الذي لا يتعدى نجمة واحدة وتحدث قليلًا مع رجل الاستقبال ثم عاد إلى هبة التي سألته:

- احنا بنعمل ايه؟

- أصل أنا كنت حاجز رحلة يومين سفاري في الصحراء بالعربية، وميعادها كان امبارح، فظبطت أطلع الرحلة دلوقتي على طول لأن كمان شوية والغروب هيبدأ وانا عايز ألحقه في الصحراء.

انتظرا عدة دقائق حتى وصلت سيارة ذات دفع رباعي، طلب كريم من سائقها أن ينصرف ويترك لهما السيارة ليذهبا وحدهما بها وأعطاه بقشيشًا مناسبًا، ركبوا ثلاثتهم وانطلق كريم بها قائدًا، بعد عدة دقائق دخل بها طريقًا غير ممهد ومنه إلى صحراء ناعمة نقية تعكس أشعة شمس الغروب غلب عليها لون أصفر بديع، مما صنع لوحة طبيعية مميزة، تسابق الهواء مرتطمًا بوجوههم، هبة حررت شعرها من رباطه لينسدل راقصًا، والطحان ظل ينبح هازًّا ذيله سعيدًا هو الآخر مما جعل كريم يبتسم لا إراديًّا وداعب شعر الطحان لفرحته الواضحة ونظر إلى هبة وشعرها الأحمر المتطاير في الهواء، ظل كريم سائرًا بالسيارة ما يقرب من نصف ساعة، ثم توقف في قلب الصحراء لا يحيطهم أي شيء سوى رمال ناعمة، نزل من السيارة

وجلس على مقدمتها يستنشق الهواء وقفز الطحان يتقلب في الرمال سعيدًا للغاية، فعلت هبة مثل كريم وجلست إلى جواره على مقدمة السيارة ناظرة هي الأخرى شمسَ الغروب، ثم نظر إليها كريم سائلًا:

- فاكرة لما قولتيتلي في مرة عربية خبطتك وقولتيتلي حوضك اتكسر؟

التفتت إليه هبة، وكانت شمس الغروب تعكس ألوانها على وجهها، وشعرها الكستنائي الأحمر يرقص مع الهواء، مما أبرز جمالها فجذب كريم إلى تأمل وجهها، شعيرات حاجبيها الناعمة التي تهتز مع الهواء وعينيها اللتين غمر العسل لونها، قاطعت تفحصه قائلة:

- آه فاكرة، بتسأل ليه؟

تنهد كريم قائلًا:

- عايز أشوف ايه اللي حصل بالظبط؟

ابتسمت هبة وسعدت لأنه يريد أن يسمع معاناتها، وبحركة آلية اعتادتها، مسكت يده لتبدأ تلك الحكاية المريرة:

- في الفترة دي كنت زهقت جدا من روتين حياتي، وفكرة الهروب كانت هي اللي مسيطرة على تفكيري، أنا معايا جنسية أردنية وكنت فكرت أهرب على الأردن ومنها أبقى أروح أي حتة تانية، سيلت فلوس وجهزت الباسبور وحجزت التذكرة وكله كان تمام، في الفترة دي كنت بنزل اشتري حاجاتي بالليل متأخر عشان ما حدش يشوفني كالعادة.

****

كانت هبة أصغر سنًّا، ترجلت من سيارة أجرة مرتدية حقيبة ظهرها حاملة بعض الأكياس الممتلئة، كان ذلك منزل مدينة نصر، في شارع أبو داود الظواهري بعيدة عن المنزل، عبرت الشارع ثم سمعت صوت ارتطام شيء ما بالأرض نظرت أرضًا يمينًا ويسارًا فلاحظت محمولها قد سقط من جيبها الخلفي، التقطته بسهوله ووقفت وسط الشارع تنفخ فيه منظفة إياه وتمسحه في سروالها لتزيل أي غبار، فجأة غمرتها إضاءة سيارة قادمة من قريب آتية من خلفها مسرعة للغاية، بدا قائد السيارة مبيت النية ليصطدم بها؛ فهو لم يضرب صفارة تنبيه أو فلاشًا، وبالرغم من سرعة السيارة كانت ردة فعل هبة سريعة أيضًا فتقدمت بسرعة لتنتقل من وسط الطريق إلى حافته ولكن هبة لم تحسب المسافة جيدًا، فلقد انتقلت إلى نهاية الطريق فعلًا ولكن السيارة كان تتعمد صدامها فمالت مقدمة السيارة وضربتها، لترتطم بسيارة واقفة بعنف وتسقط بين سيارتين مغشيًّا عليها.

انصرفت تلك السيارة التي صدمتها بلا مبالاة.

اسودت الرؤية أمام كريم بعد أن فقدت هبة وعيها وهو يتابع ذلك المشهد، ثم بدأت تتضح الرؤية نسبيًّا، لم تغب هبة عن الوعي كثيرًا وبعد أن أفيقت لم تكن قادرة على تمييز الأشياء من حولها، تركت نفسها راقدة أرضًا برهة لتستعيد تركيزها ثم تسندت لترفع جذعها، فسمعت صوت طرقعة ما وألم سار في جسدها كله فارتمت أرضًا صارخة، غير قادرة على الوقوف!

حاولت أكثر من مرة ولكنها فشلت، لم تكن تعلم أن هناك ألمًا بهذه القسوة يمكن أن تشعر به، كان الألم يعوي عندما تحاول النهوض، استسلمت راقدة على ظهرها والدموع الغزيرة تحاول إخماد ألمها، بزغ أمامها حل، لم تستنبط غيره في ذلك الوقت، خلعت الحقيبة من على ظهرها وارتدتها بالعكس لتصبح الحقيبة على

بطنها، المرارة التي تشعر بها تفوق ألمها الجسدي مئات المرات، كانت ترى نفسها حيوانًا ملقى على جانب الحياة لا يراها أحد ولا يهتم لوجودها فهي عالة على نفسها وتشغل حيزًا في هذا الكوكب دون داعي، الدموع فاضت تثقل كاهلها أكثر، ولكن بعملية تعاكس كل ما تشعر به تدحرجت على جانبها كأي أسطوانة وانقلبت على بطنها، ابتسمت سعيدة لنجاحها في التقلب من ظهرها إلى بطنها ثم بدأت الزحف، كانت المسافة المتوقعة هي الزحف على بطنها من شارع أبو داود الظواهري إلى نهاية شارع أحمد فخري حتى تصل إلى مستشفى حسبو الدولي، مسافة كبيرة للغاية تتعدى الكيلو متر، الإنسان الطبيعي المعافى لن يقدر على الزحف قرابة الكيلو ونصف متر فما بالها ستزحف على بطنها متألمة بكسر ما في جزء من أجزاء جسدها لم تحدده، بدأت الزحف وهي تبكي بحرقة مع كل تجديفة بذراعها، مرت على العمائر والأكشاك والشوارع والنواصي ولمحها أحد ما فظن أنها من الشحاذين، وعندما نال منها التعب توقفت للراحة ثم أكملت، كانت لا تنظر لأي شيء حولها، كانت تريد أن تصل إلى هدفها -المستشفى- بأقصى سرعة ممكنة، ومع كل حركة تجديف بذراعيها زاحفة تنزل دمعة جديدة...

بعد ساعتين من المعاناة وقرابة شروق الشمس وصلت إلى سلم المستشفى وكان الألم قد وصل إلى أقصاه والتعب كسر رقمًا قياسيًّا، صعدت درجتين من السلم ثم تهاوت فاقدة الوعي.

اسودت الرؤية أمام كريم ثانية وعندما استعادت هبة وعيها في المستشفى عادت إليه الرؤية.

بعد مدة لا يميزها سوى سواد الليل، دخلت عليها الممرضات، ومكثت أيامًا يمر عليها الأطباء وتتناول الأدوية، وأعلموها أنها أصيبت بكسر في الحوض يستلزم منها الرقود على ظهرها قرابة الشهرين وعليها أن تفعل كل أشيائها الطبيعة وهي نائمة على ظهرها، حتى يلتئم العظم، مكثت في المستشفى أيامًا قليلة، ثم طلبت منهم نقلها إلى منزلها ليلا في هدوء، وبالفعل نقلوها في سيارة إسعاف إلى منزلها ومن إحدى الممرضات طلبت عشر كراتين من المياه المعدنية وأربعين علبة فول ولوبيا محفوظة وكميات كبيرة من الخضر والفاكهة وكل وسائل الإعاشة المطلوبة التي تكفي شهرين؛ فابتاعت لها الممرضة كل الطلبات التي حددتاها معًا وكافأتها ببقشيش محترم وبعد ذلك قالت لها هبة وهي راقدة على ظهرها:

- شكرًا يا راضية أنا تعبتك قوي، ممكن تسيبي المفتاح هنا واقفلي الباب وراكي كويس.

نظرت إليها راضية الممرضة غير مصدقة ما تفعله هذه الإنسانة الغامضة، وتعاطفت معها لدرجة أنها بكت بحرقة كبيرة قبل انصرافها الأخير، كيف من الممكن أن تتركها في هذه الحال وحدها، فلما شعرت هبة بتعاطفها تابعت قائلة:

- وما تجيش تسألي عليا يا راضية.

انصرفت الممرضة راضية، تاركة هبة وحدها في الشقة راقدة على ظهرها لتعيش أحلك أيامها التي لن تنساها ما حييت.

****

نزع كريم يده من يد هبة غير راغب في رؤية الباقي من القصة، ناظرًا إليها معقود الحاجبين قائلًا:

- وكنت بتخشي الحمام ازاي!

استنشقت هبة نفسًا طويلا مغمضة عينيها مسترجعة الحدث وفهمت ما يرمي إليه السؤال:

- أسترة، ما كنش ينفع اقوم خالص.

- ومين كان بيركبلك الأسترة؟

- أنا كنت بركبها لنفسي.

- طب واكياس الأسترة المملية كنت بتوديها فين؟

- كنت بحطها جمبي في الأوضة.

- والأكل؟

- كنت باكل كل يوم نص علبة فول بس عشان ما أضطرش أغير حفاضات كتير.

صمت كريم برهة يتخيل ما تفعله بنفسها كلما امتلأت الأسترة وهي تغير الحفاضات لنفسها وتضع تلك الأشياء بجوارها في نفس الغرفة وكل ذلك لمدة شهرين، فامتعض كثيرًا، وعض على شفتيه ثم قال:

- ليه كل ده!

نظرت إليه هبة والدموع قد ملأت عينيها من الذكريات التي تمقتها، وتفاجأت للغاية فوجدته هو الآخر محمر العينين تملؤهما الدموع، شعرت هبة شعورًا جديدًا للغاية لم تشعر به منذ ما يقارب العشرين سنة أن شخصًا ما في هذه الدنيا يشعر بها ويخاف عليها ويبكي لحالها، تفجرت مشاعر بداخلها وزاد بكاؤها وبدأت

تقطر أشياء من أنفها، فنزل كريم من على السيارة ليحضر لها منديلًا، جلس بجوارها واقترب منها يمسح لها أنفها ودموع عينيها ثم التقت أعينهما، ووسط ذلك الجو النقي وشمس الغروب والمشاعر التي تحرك الرمال من حولهما كان يجب بعد التقاء أعينهما أن تلتقي شفتيهما!

بمنتهى السلاسة والنعومة، لم تكن هبة تقضم شفاه كريم لرغبة جنسية منها ولكنها كانت تريد أن تتداخل أكثر مع ذلك الشخص حيث شعرت معه بأمان وخوفه عليها الذي أدار محركات سعادة كان قد غطاها الصدأ، وكريم أيضا لم يكن يتلاحم مع شفة هبة الناعمة لرغبة فيها ولكن ليرسل إليها رسالة مكتوب في ريقها - أنا قريب منك ولا تخافي شيئًا- تفجرت مشاعرهما وخصوصًا هبة التي لم تشعر بذلك الانتشاء طوال حياتها فمالت عليه صاعدة أعلاه على مقدمة السيارة غير تاركة فمه لحظة، لف كريم ذراعيه حول هبة يحتضنها مستمتعًا بفمها، حركت هبة يدها على رقبة كريم لتنزل إلى صدره القوي فأعاقتها أزرار قميصه، ففكت أول زر لينكشف صدره، ثم الثاني ثم الثالث، ولكنها فزعت للغاية وتركته ونزلت من عليه ومن على مقدمة السيارة لتنظر إليه بمنتهى الدهشة وتسأله بعنف واندهاش وهي تشير إلى صدره:

- انت جبت السلسلة دي منين؟

نهض كريم من رقدته ونظر إلى رقبته وأمسك السلسلة الذهبية التي يرتديها على شكل ورقة شجر وورد:

- منك.

- !

نزل كريم من على مقدمة السيارة وهو يربط أزرار قميصه ثم خلع السلسلة من رقبته قائلًا:

- وقعت منك يوم الحادثة بتاعت الكوربة اللي حكتيلي عليها وانا العيل اللي جه ساعتها وأنقذك، بعد ما ندهت ناس وجم ساعدوني وودوكي المستشفى، لاقتها على الأرض، بس ما عرفتش اوصلك تاني ازاي عشان ارجعهالك، ففضلت لابسها، وما عرفتش ان انتي البنت اللي انقذتها غير لما شوفت نفسي وانت بتحكيلي.

أمسكت هبة السلسلة متفحصة إياها مستعيدة ذكرياتها معها، فقالت وكأنها تتحدث مع السلسلة:

- ورقة الشجر دي كانت بتاعت بابا، كان جايبها لماما وكان يقولها طول ما انتي لابسها افتكري أني مسؤول منك، كانت آخر حاجة فضلالي منهم بعد ما ماتوا في الحادثة!

أمسك كريم يدها ليرى ما تحكيه فأكملت هبة:

- كنا مسافرين راحين اسكندرية، كانت حادثة كبيرة، عربية بتنقل طوب أحمر، كانت معدية جنبنا وقع منها طوب كتير قوي وبابا حاول يفاديه بس العربية اتقلبت بينا، وما درتش بأي حاجة بعدها، فوقت لقيت أبويا وأمي غرقانين في دمهم وأخويا كان برا العربية ميت برضو، خرجت من العربية وافتكرت السلسلة دي فقلعتها لماما بصعوبة لأن رقبتها كانت مكسورة وعاملة زاوية صعبة .

ترك كريم يد هبة بعد ما رأى الحادث رؤية العين وكم كانت تحمل كم ألم نفسي وبدني، تحملت تلك المرأة ما لا يحتمله أقوى الرجال، كم من البشر يترك أباه وأمه أمامه مدرجين في دمائهم ليخلع عنهما آخر الأشياء التي سيتذكرهما بها، لقد جرعها الزمن قسوة القلب ولكن لا لتكون قاسية على الآخرين وإنما قاسية على

نفسها، ولم تضيع وقتها في نحيبها عليهما وإنما قست على نفسها ونظرت إلى مستقبلها وبمنتهى العملية خلعت هذه السلسلة.

- وحظك يوم حادثة الكوربة كنتي لابساها.

أومأت هبة برأسها إيجابًا ثم تنهدت وهي تنظر إلى السلسلة في يدها، كانت جميع الأجواء حولهما قد تبدلت إلى حزن خصوصًا مع غروب الشمس، فأراد كريم أن يغير هذه الأجواء فقال:

- طب وكده هتخديها خلاص؟ ده أنا لبستها أكتر منك!

ناولته هبة السلسة مرة أخرى ليرتديها بتلقائية، وقالت مبتسمة:

- لأ مش هخدها، خليها معاك دلوقتي.

أمسك كريم السلسلة، مرتديًا إياها متمتمًا بصوت خافت لها:

- اليوم اللي حكتيلي فيه عن حادثة الكوربة وعرفت ان انتي نفس البنت اللي أخدت السلسلة بتاعتها عرفت ان القدر بيقولي اني مربوط بيكي مهما طال الوقت، شكل باباكي كان عنده حق، كنت دايما حاسس اني مسؤول عن السلسلة دي واني اكيد هقابل صاحبتها تاني.

****

لقد تذكرت الآن كل شيء
وعلمت من صنع ذلك الدخان من البداية.

(٩)

حل وقت الغروب في حي المعادي، أمسك كريم يد هبة ليساعدها على النزول من الميكروباص والطحان يقفز بجوارهما، مرتدين حقائب ظهرهما، نظرت هبة حولها فوجدت أمامها قسم شرطة المعادي فسألت:

- احنا جينا هنا ليه!

- هنعمل حاجة كان مفروض نعملها من أول ما شوفتك، هتعملي بلاغ إنك متراقبة، ولوحدك.

قالت له وهي تتباطأ:

- يا كريم مش هيعملوا حاجة.

- معلش، اسمعي كلامي، انت مشيت ورا دماغك سنين وفي الآخر ما وصلتيش لحاجة، كررت نفس غلطتك بنفس الطريقة بأنك تهربي، ويمكن لو ما كنتيش قابلتيني كنتي هتفضلي في نفس الدايرة اللي كنتي عايشة فيها، مش انا قلتلك ان ممكن يكون من أعمالكم سلط عليكم وانتي قلتي ممكن يكون مرض جالك ومحتاجة دواء عشان يعالجك، هنمشي ورا كلامك ونعتبر إن انا الدواء اللي ربنا بعتهولك، لما بتروحي لدكتور بتناقشيه في الدواء اللي بيكتبهولك؟

صمتت هبة أمام منطقه في الإقناع وهي تفكر فيه ثم قالت:

- صح، أنا مش هخسر حاجة.

-بالظبط، اسمعي بقى هتعملي إيه بالظبط.

سمعت ما طلبه واستوعبته جيدًا ثم دخلت القسم بعد تردد! وأمام أمين الشرطة الجالس خلف مكتب صغير قالت:

لو سمحت عايزة أعمل بلاغ.

كان أمين الشرطة يحتسي شايًا ساخنًا بصوت شفط مقزز ماسكًا محموله مندمجًا في أحد الألعاب، أنزل الكوب وترك المحمول متأففًا وأخرج ورقة وقلمًا؛ وبدون كلام أو مقدمات بدأ كتابة دباجة المحضر في صمت ثم قال:

- ها، بتبلغي عن إيه؟

قالت بتوتر:

- أنا متراقبة، بس مش عارفة من مين.

نظر أمين الشرطة إلى هبة في صمت ثم قال:

- يعني بتبلغي عن إيه؟

اندفعت هبة:

- ما أنا بقولك فيه ناس بتراقبني وبتطاردني!

- أيوه يا مدام يعني بتتهمي مين؟

نظرت إلى أمين الشرطة مشمئزة وقد بدأت تفقد تحكمها في هدوئها قائلة:

-أنتو ناس في منتهى الكسل والغباء، وعايزين طول ما انتو قاعدين تشربوا في سجاير وشاي.

انتفض أمين الشرطة وقرر ألا يمرر حماقة هبة مرور الكرام فقال وهو يخرج من خلف مكتبه:

- إنتي بتقولي إيه يا مدام، أنا ممكن أبيتك في الحجز النهارده.

ردت عليه بغضب:

- ما تتكلم كويس أنا مش شغالة عندك ولا حتى ماسكني في جريمة واللا انت عشان الظابط بتاعك مسففك تراب القسم هتعيش عليا أنا!

أمسكها أمين الشرطة من قميصها وهو يجرها قائلًا: "وحياة أمك لأعرفك ازاي تسفي التراب" صرخت هبة في أمين الشرطة أن يتوقف ولكن غروره كان قد وصل إلى ذروة سنامه... فُتح باب غرفة جانبية وخرج منها ضابط شرطة صائحًا:

إيه الصوت العالي ده، فيه إيه يا أمين صالح انت بتعمل ايه؟

رد عليه الأمين ولم يترك قميص هبة:

- البت دي جاية تهرج يا سعادة الباشا.

بنظرة الضابط الخبيرة تفحصها فوجدها امرأة جيدة الملبس لا تبدو من أصحاب المشاكل، ثم قال للأمين:

- دخلها المكتب، أما نشوف حكايتها إيه.

دخلت هبة غرفة الضابط المناوب الذي دخل وراءها سائلًا:

- معلش الأمنا بيبقوا أغبيا شوية، ها حكايتك ايه؟

هندمت ملابسها وقالت:

- أنا كنت عايزة اعمل بلاغ ان فيه حد بيراقبني وبيمشي ورايا في كل مكان.

- اسمه إيه؟

- معرفش.

- ساكن فين؟

- انا بقولك بيراقبني، مش هقف اتعرف عليه؟

- صح مش هينفع تقفي تتعرفي عليه، قصدك نعينلك حد يمشي وراكي أربعة وعشرين ساعة يشوف مين اللي بيراقبك؟

- معرفش حضرتك انا متراقبة وحياتي كلها متهدة وانا مش عارفة اتصرف ازاي.

تنهد الضابط وتفهم موقفها وأنها تستنجد بهم فرد عليها بقلة حيلة واضحة:

- طول ما مفيش أي معلومة ولا اشتباه في أي حد، ما ينفعش حتى أعملك محضر.

زمجرت هبة وهزت رأسها يمينًا ويسارًا ثم زفرت في يأس، وعلى ورقة بيضاء أمام الضابط أمسكت قلمًا وكتبت شيئًا ما ثم قالت بانفعال:

- ما فيش فايدة، ده عنواني خليه عندك عشان هتحتاجه قريب، بس ساعتها ما تجيش تقول يا رتني.

قالت هبة جملتها وانصرفت لتخرج إلى كريم، الذي ابتسم في وجهها، في حين أن الضابط داخل القسم قد أمسك الورقة التي كتبتها ناظرًا إليها متعجبًا مما فعلته أخيرًا.

***

في الكوربة أمام بيتها وقفا معًا وقد أنهت شمس الغروب رحلتها لتصفر الأجواء، ونسمات الهواء تضرب وجههما فلطفت من أجواء حرارة شهر يوليو، كان الزحام قد بدأ في الازدياد، فالاحتفالات ما زالت قائمة، وقف الاثنان في صمت ينظران إلى الناس حيث كون تزاحمهم مسيرة للاحتفال، فقالت له:

- كريم، أنا بجد ما بحبش الزحمة، يللا نمشي من هنا.

نظر كريم إلى عينيها الجميلتين اللتين زادتا تلألأ تحت أشعة الشمس وقال لها في صوت منخفض:

- معلش هتمشي في المسيرة دي يا هبة لوحدك وأنا همشي وراكي... آخر مرة.

- لأ مش هقدر أمشي لوحدي.

- أنا هكون وراكي مش هاسيبك.

بلعت ريقها لأنها ستسير في ذلك الزحام مجددًا وهذه المرة وحدها، لم تنس ذلك الموقف عندما فقدته من قبل وسط الناس، كان إحساسًا لا تريد تذوقه مجددًا، نظر إليها وابتسم عندما بدأت هبة السير وهو يمسك الطحان المربوط بسلسلة بيمينه، واندسا وسط الزحام.

ظلا سائرين صامتين وسط صياح الناس الفَرِح وكأنهما في بُعد آخر، لا علاقة لهما بكل ما يحدث حولهما، هي كان كل همها في تلك اللحظة أن يفقدها كريم وسط الزحام، وهو كان سائرًا خلفها في منتهى التركيز وكأنه منتظر شيئًا ما.

لا تعلم كيف وصلت إلى تلك النقطة من إحساسها بكريم، طوال تلك السنين تعيش والخوف هو محركها، معتمدة اعتمادًا كليًّا على ذاتها وذكائها، لا تعلم ماذا حدث لها بعد أن وثبت من على سطح البناية مع كريم، هل وثقت به فقط أم أحبته أم أن ثقتها به أوصلته إلى قلبها، أم أنها كانت تفتقر وجود رجل حقيقي تعتمد عليه في حياتها! لكنه رجل مختلف، تشعر معه بالأمان، والأمان هو أول أحلام أي أنثى، أغمضت هبة عينيها حتى تبعد تلك الحيرة والأسئلة التي لا إجابة لها عن رأسها قائلة لنفسها "يا رب".

"إنتي فاكرة العيل السيس ده هيعرف يحميكي!".

فتحت عينيها فجأة بعد أن اخترقت تلك الجملة أذنيها فنظرت حولها بجنون تبحث عن قائلها، جرى عليها كريم وكأنه ينتظر ذلك الحدث، فأمسكها من كتفها وسألها:

- في إيه يا هبة، إيه اللي حصل!

وهي لا تزال تنظر حولها تبحث وترد بصوت خافت:

- فيه حد جه قاللي في وداني "إنتي فاكرة العيل السيس ده هيعرف يحميكي!" بس مش لاقياه!

و في قلب الزحام توقف كريم مكانه وأشار إلى الطحان أن يجلس مكانه، بجانبهما، أمسك هبة من كفيها وقال لها:

- كرري تاني قالك إيه بالظبط؟

."إنتي فاكرة العيل السيس ده هيعرف يحميكي!".

كانت الناس تسير من حولهما تنظر إليهما في تعجب، كررت الجملة وكريم كالطيف الشفاف داخل ذاكرتها يبحث عن القائل بين الوجوه الكثيرة حولها وسط الزحام، فلم يجده، ويبدو أن الحدث كان خاطفًا سريعًا، فأغمض عينيه بقوة وقال لهبة:

- قولي تاني.

"إنتي فاكرة العيل السيس ده هيعرف يحميكي!"

لأول مرة يشعر بقصور قدرته، وتمنى أن يكون لديه القدرة أن يتحكم في سرعة الحدث الذي يراه في ذاكرة هبة ليوقف الصورة أو يبطئها ويبحث بين الوجوه مدققًا أكثر، غير أنه لم يجد شيئًا هذه المرة أيضًا، فطلب منها أن تعيد:

- تاني.

"إنتي فاكرة العيل السيس ده هيعرف يحميكي!"

كان في كل مرة يتفقد زاوية غير سابقتها فلا يجد أحدًا يقترب من أذنها، فيطلب منها أن تعيد جملتها ليذهب إلى زاوية أخرى، ولكنه هذه المرة وجده، شخص مال على أذنها اليسرى من خلفها وقرأ شفتيه قائلًا "إنتي فاكرة العيل السيس ده هيعرف يحميكي!" ولكن لم يستوضح شكله بوضوح كافٍ، فقال مبتسمًا مغمضًا:

- آخر مرة.

- "إنتي فاكرة العيل السيس ده هيعرف يحميكي!"

هذه المرة اتجه مباشرة خلف أذنها اليسرى ليقف ويستوضح شكل الشخص الذي حدثها، من بداية الحدث ومن قبل أن يقول لها أي شيء، شخص ضعيف البنية يرتدي قميصًا أسود ومن تحته فانلة بيضاء وملامحه توحي بأنه مجرم أو على الأقل شرب عدة أنواع من المخدرات لسواد تحت عينيه وذبول أجفانه، حتى قال لها جملته "إنتي فاكرة العيل السيس ده هيعرف يحميكي!"، ثم فتح كريم عينيه ليبحث عن ذلك الشخص من حول هبة فلم يجده، نظر إلى الأمام فوجده يسير أمامه وسط الزحام في اطمئنان، فالتفت إليها قائلًا لها في جدية وبلهجة آمرة:

- روحي دلوقتي على البيت، بيتي أنا، والطحان هيروح معاكي، اجري يا هبة بسرعة ما تقفيش، ما تبصيش وراكي ولا تدوري عليا ولا حتى تطمني عليا، خليكي عند ماما لغاية لما اجيلك ما تنزليش غير لما اجيلك، فاهمة يا هبة! والطحان هيروح معاكي، لو وقف سيبيه وامشي، الطحان عجزوما بقاش يقدر يجري كتير زي الأول، بس هيحصلك في الآخر هو عارف الطريق.

كان توتر هبة قد وصل إلى أقصاه، ورجفتها ظهرت على شفتيها، فقالت له:

- إنت عرفت ازاي ان فيه حاجة هتحصل النهارده؟

صاح بها كريم ليعلو صوته فوق صوت الزحام وهو يمسكها من كتفها بقوة:

- هبقى اقولك بعدين، امشي يا هبة دلوقتي مش وقت أسئلة، اجري زي ما قولتلك، ما تقفيش.

نظرت إليه هبة نظرة أخيرة ثم تركته وركضت بسرعة كبيرة مثلما تفعل طوال حياتها وكأن شخصًا ما يطاردها، راقبها وهي تجري حتى اختفت عن أنظاره ثم قال لكلبه:

- طحان، اجري على البيت مع هبة.

نهض الطحان من سكونه ونظر إلى صاحبه وانصرف هو الآخر، التفت كريم ليتابع ذلك الشخص الذي همس في أذنها فسار خلفه ليضع نهاية مأساة إنسانة .

****

(١٠)

ركضت هبة بسرعة كما لم تركض من قبل، شعرها يتطاير في الهواء، ينظر إليها الناس في اندهاش مم تهرب! ولكنها لم تعر أي شيء اهتمامًا، تركض فقط، ولاحظت الطحان يركض بجانبها ولسانه خارج فمه يقطر ماء، طمأنها وجوده قليلًا فزادها ذلك سرعة حتى أنها بدأت تسبقه، غير أنها لم تسبقه كما ظنت بل أرهق وخفت سرعته عن سرعتها.

توقف الطحان عن الجري تماما لاهثًا بقوة، حتى أنه رقد على جانبه أرضًا يستعيد أنفاسه، توقفت هبة تنظر إليه بشفقة وتنظر حولها في خوف من أي شيء مجهول قد يؤذيها، لا تعلم التصرفَ الصحيح، رجعت هبة إلى الطحان تنظر إليه وهو ينهج بقوة ونظر إليها هو الآخر بجانب عينيه، تذكرت كلام كريم "اجري يا هبة بسرعة ما تقفيش ما تبصيش وراكي" نظرت حولها خائفة ثانية ثم قامت من جلستها مقررة أن تترك الطحان منصرفة.

تركت هبة الطحان راقدًا أرضًا يلتقط أنفاسه في صعوبة، لتكمل ركضها، لم يكن سهلًا عليها أن تتركه، تعلم جيدًا بما يشعر الطحان الآن فقد مرت في حياتها بمواقف كانت ترقد فيها أرضًا مثله بالضبط، منتظرة مساعدة ولو من أي كلب مثله بالرغم أنها إنسانة تتركه هكذا ببساطة وتنصرف؛ أخبرها كريم أن "الطحان عجز وما بقاش يقدر يجري كتير زي الأول" فعندها علم أنه قد شاخ ولا يقدر على الجري، ومع هذا تتركه هكذا! كما حدث معها وظلت تزحف لساعات على بطنها لتذهب إلى المستشفى ولم يمد لها أحد يد المساعدة؛ توقفت عن الركض ورجعت

إلى الطحان الذي نظر إليها، ووضعت ذراعيها من تحته لتحمله كأنه طفل في مهده مكملة سيرها به.

سارت هبة كثيرًا حاملة الطحان بين يديها، وبلغ التعب منها مبلغه من ثقل وزنه وتسارعت أنفاسها وزاد توترها، كانت قد اقتربت من منزل كريم، شعرت أن حركة صدر الطحان قد هدأت قليلًا وأدخل لسانه داخل فمه، وبدون إذن منها عدل من رقدته وقفز من حملته إلى الأرض ثم نبح عليها مرتين وكأنه يخبرها أن تركض مجددًا، سعدت هبة للغاية لاستعادة الطحان عافيته وركضت خلفه.

****

لا يعلم كريم سبب اختلاف شعوره هذه المرة وهو يساعد هبة، شعور مختلف عن كل مرة يساعد فيها أي فتاة أخرى، يخاف عليها أكثر، إصراره أقوى وصبره أطول، لا يعلم هل هو انجذاب شهواني رجل لامرأة جميلة ذات جسد متناسق وجذاب أم أنها مثلها مثل غيرها جسديًّا ولكن عشق روحها الذي جعل جسدها في عينيه جذابًا، لا يسعه بيان الحقيقة.

سار كريم وسط الزحام بسرعة مرتطمًا بالناس خلف الشخص الذي حدد شكله وملابسه، مقتربًا منه للغاية، وعند أذنه اليمنى وشوشه قائلًا:

- مش هتوريني هتعمل إيه مع العيل السيس؟

التفت إليه الشخص المرجو في فزع، فلم يمهله كريم فرصة، وبحرفية رجل شارع مخضرم ضرب أنفه برأسه ليستجيب أنف الرجل بسهولة وتسيل منه الدماء التي أثارت خوفه وفزعه، فأمسكه وتفحصه فوجد الدماء أغرقت يده، وشعر

بطعم الدماء في جوفه، أمسكه كريم من ياقة قميصه وجره حتى خرجا خارج المسيرة التي تفرق تجمهرها خوفًا منهما.

جذب كريم الشاب المدرج في دماء وجهه من قميصه بين العمائر المشغول سكانها في مراقبة المسيرات المزدحمة، وبحركة بسيطة دفعه واضعًا قدمه خلفه فسقط أرضًا، نظر كريم حوله سريعًا حتى وجد حجرًا متوسط الحجم فالتقطه بيده اليسرى وجثم على صدر الرجل واضعًا رجليه على ذراعيه ليحكم رأسه بين فخذيه ثم لكمه بيده اليمنى في وجهه صائحًا:

- انت مين ياد وبتراقب البنت دي ليه؟

رد الشاب مطلِقًا بعض رذاذ الدماء:

- انت بتتكلم عن إيه، وبتعمل معايا كده ليه؟

كذب الشاب آثار غضب كريم أكثر فلكمه بقوة أكبر بين عينيه:

- ما تكدبش يلا، بتراقبها من امتى؟

بحسبة بسيطة، أدرك أن ذلك الشاب –كريم- أقوى منه وأفتى، فرد والألم مسيطر على وجهه:

- أنا أول مرة أشوفها النهارده.

كانت صدمة لكريم، فالشاب لا يكذب مطلقًا، إنه لم يرها من قبل، لا يجد أي ذكريات عكس كلامه، عندما قال "أنا أول مرة أشوفها النهارده" لم يجد أي حدث غير الأخير عندما هددها في أذنها بصوت خافت، مما أزعجه للغاية لقد ظن أنها النهاية وسيقر بالحقيقة كلها الآن ويريح هبة مما هي فيه، استشاط غضبًا ولكم الشاب مرة أخرى قائلًا:

- مين زقك عليها؟ انطق!

نفث الشاب بعض الرذاذ مرة أخرى وقد بدأ بالبكاء:

- ما حدش زقني عليها يا باشا، أنا كنت بعاكسها بس.

صاح به كريم:

- بتعاكس مين يا ابن...انت هتستعبط؟ انطق!

ورفع يده اليسرى التي تمسك الحجر ليضربه به:

- وحياة أمك لتكون آخر ضربة، هفتحلك دماغك واسيبك زي الكلب تجيب دم لغاية لما تموت.

- يا باشا ما اقدرش اقول، هتأذي...

- ما انت بتتأذي أهو يا غبي، قولي مين قالك تعمل كده، قولي واستخبالك يومين ولما تطلع هكون خوفتلك اللي قالك تعمل كده ومش هيعرف يعملك حاجة بعدها، انطق يا عـ...

كريم بدأ يفقد أعصابه لصلابة الشاب وعدم اعترافه بأي شيء، فلكمه مرة أخرى ثم رفع الحجر ليضربه به، ولكن الشاب قاطع قراره بالضرب صائحًا:

- هاقولك... هاقولك كل حاجة.

- قول... بس لو كدبت هفشـ...

صرخ بها كريم في وجه الشاب ليدلي بكل ما لديه، فرد الشاب:

- الباشا... الباشا صادق الدلاتوني.

- مين صادق الدلاتوني ده... بيشتغل ايه؟

- ده سمسار يا باشا.

بينما يمسك شعره علم كريم أنه صادق تمامًا في حديثه، فقد رأى الحديث الذي داربينهما، ثم سأله:

- وصادق ده عايز منها إيه؟

- معرفش يا باشا، هو قاللي راقب بيتها وأول ما ترجع خليك ماشي وراها وهددها بأي كلمتين واختفي واداني شاي كويس قوي على حاجة صغيرة زي دي.

- صادق الدلاتوني ده مكانه فين؟

- مش فاكر يا باشا والله.

فك كريم زمام صبره، وبكل قوته رفع الحجر بيده وضرب به كف الرجل المغلولة تحت ساقه ليحطم عظامه تمامًا، مما جعل الشاب يطلق صرخة مدوية من ألم لن ينساه، كادت عيناه تخرجان من محجريهما وعروقه اتسعت مجاريها لتظهر على سطح رقبته وهو يصرخ: - فين؟

- جسر السويس يا باشا، ارحمني الله يخليك...

- فين في جسر السويس؟

- عند السوبر ماركت الكبير ده اللي اسمه...

لم يكن كريم يريد أكثر من ذلك فلقد رأى لافتة المكتب ورأى السوبر ماركت واسمه... اكتفى كريم من الرجل، فترك الحجر وخلع حزام سرواله الشخصي وربط قدميه ثم خلع حزام الشاب وربط به كفيه خلف ظهره ليعجزه عن الحركة، فتشه جيدًا حتى وجد محموله فقذفه بعيدًا، ثم نهض من عليه وبكل قوته ركله في وجهه، ففقد الشاب وعيه، وقف ملتقطًا أنفاسه مهدئًا من روع نفسه مرتبًا أفكاره، ثم أخرج هاتفه واتصل برقم ما وقال:

- أيوه يا عم دسوقي، أخبارك ايه، أنا كله تمام، بقولك ايه انا ممكن اعدي عليك النهارده اعمل تنضيف وصيانة، آه، لأ هاجي ان شاء الله، سلام.

وأغلق الخط وانصرف في هدوء.

(١١)

وصل كريم بنايته وصعد إلى شقته، وقف مستغربًا فقد كان باب الشقة مفتوحًا على مصراعيه، انتابه الشك واقترب في هدوء وفي أثناء اقترابه سمع صوت نحيب، وقف بباب الشقة وتفحص المكان، كان كل شيء يدعو إلى الذهول التام، المنضدة مهشمة والتلفاز مقلوب أرضًا ومهشم كذلك... ولا يوجد شيء واحد في مكانه، حتى وصل بعينه ورأى أمه ملقاة على الأرض تنزف دمًا تنحب بكاء وفوقها هبة محاولة أن تسعفها وتبكي هي الأخرى والطحان جالس أمامهم لا حيلة له، كان منظر أمه صادمًا بالنسبة إليه حتى أنه تسمر في مكانه لم يحرك ساكنًا ناظرًا إليها ودموعه تنساب دون إذنه، أنفها يدمي وإحدى عينيها متورمة، وشعرها الخفيف القصير مفكوك عن رباط رأسها، نظرت إليه أمه ورفعت كفها تستنجد به، جلس على ركبتيه بجوارها مزيحًا هبة عن طريقه تلك المستمرة في البكاء، احتضن أمه بقوة وقد غرق في بكاء قوي لم يبكِ مثله في حياته، حتى سالت أنفه، ثم أمسك وجهها وسألها:

- إيه اللي حصل!

ردت أمه وهي تبكي من الألم مشيرة إلى هبة:

- قولي انت إيه اللي بيحصل يا كريم، ومين دي؟

نظر كريم إلى هبة ثم نظر إلى أمه وتابع:

- واحدة بساعدها زي ما طول عمري بساعد الناس، احكيلي بس ايه اللي حصل عشان اعرف اتصرف!

- وهي المساعدات اللي بتقدمها للناس، تعمل في أمك كده!

كانت إشارة أمه بأنه المسؤول عن ما حدث لها أدمى قلبه وأشعره بتهوره هذه المرة وأنه لم يعط الأمر حق قدره، فسألها باكيًا:

- يا امي احكيلي ايه اللي حصل ده مش وقت لوم.

- زي ما انت شايف.

نظر كريم إلى هبة التي تقف بجواره وسألها بعنف:

- اليه اللي حصل لما وصلتي يا هبة؟

ردت هبة ببكاء:

- لما وصلت كانت كل حاجة خلصت، الباب كان مفتوح وكل حاجة مكسرة ودخلت لقيت مامتك مرمية على الأرض غرقانة في دمها كده فجبت قطن ومايه ساقعة عشان الجروح دي.

أجلس كريم أمه على أحد الكراسي المتبقية، ثم سألها مكررًا:

- احكيلي، إيه اللي حصل؟

- أنا خايفة عليك، اللي يتجرأ ويخش بيوت الناس يتهجم عليها كده، يبقى فيه حاجة كبيرة، أنا خايفة عليك...

- أوعدك لو لقيت الموضوع أكبر مني هطلع منها وأبلغ البوليس.

نظرت أمه إليه بإرهاق كبير وأقدمت على فعل حير كريم للغاية فلم يفهم أهو صدفة أم فعلته عن قصد، مسكت ذراعه وقالت له "هحكيلك" أتعرف أنه يرى باللمس فمسكت ذراعه! وبدأت تحكي ليرى كريم ما حدث.

****

طرق الباب بعنف كبير حتى أنها فزعت للغاية من مكانها، وقفت خلف الباب ولم تفتحه وسألت بقلق:

- مين؟

رد عليها من بالخارج بود كبير مستنجدًا:

- أنا واحد صاحب كريم.

- ومدام انت صاحب كريم بتخبط كده ليه بالطريقة دي ما فيه جرس تضربه.

- معلش أنا آسف يا طنط ما قصدتش، هو كريم موجود؟

- لأ مش موجود.

- طب معلش استأذنك في كوباية مايه، عطشان.

- حاضر، دقيقة واحدة.

كأي أم قلبها هو محركها الأساسي أجابت طلبه وكأنه سيموت إن لم تمنحه كوب ماء، دخلت المطبخ وأحضرته له، ثم فتحت الباب لتناوله الكوب، ولكن من بالخارج لم يعطها فرصة فدفع الباب بقدمه بعنف فسقطت متألمة بالكوب الذي انكسر، ومن خلف ذلك المقتحم الضخم دخل رجلان منتشرين في الشقة يتفحصانها ويفتشانها، ففزعت للغاية وبدون وعي منها صرخت؛ نظر إليها المقتحم الضخم أن تصمت ولكنها ظلت تصرخ، فاقترب منها وصفعها على وجهها صفعة واحدة أدمت وجهها فصمتت، خرج الرجلان من الداخل وقالا لثالثهما إنهما لم يجدا كريمًا، نظر الرجل إليها وقال:

- قولي لابنك يبعد عن البت اللي ماشي معاها عشان ما يتأذيش.

ثم نظر إلى صاحبيه وأشار برأسه إشارة المتفق عليها فانطلقوا كالطيور المحررة لتوها، هشموا الشقة في جميع أرجائها، ثم تركوها أرضًا وانصرفوا.

تركت أم كريم ذراعه بعدما أنهت حكايتها، نظر كريم إلى هبة التي علمت الآن أنها السبب في كل ما حدث له ولها، أخرج كريم محموله واتصل بمحمد حجاج:

- أيوه يا حجاج، تعالالي دلوقتي.

****

بعد ساعة.

في منزل محمد حجاج كانت ترقد أم كريم على سريره بعد أن ضمد جراح وجهها، وهبة تسقيها الماء لتناول بعض المسكنات لتسكين ألم سقطتها التي أصابتها ببعض الرضوض والكدمات، فأشار كريم إلى هبة قائلًا:

- استنيني برة يا هبة.

تركت كوب الماء وخرجت بطاعة عمياء من الغرفة دون أي سؤال او اعتراض، فاندهش حجاج من طاعتها له فسأله:

- هي بقت بتسمع كلامك عادي كده؟

- سيبك من الكلام ده وركز معايا.

بصوت خافت للغاية حتى أم كريم لا تسمعه، دار حوار قصير بين كريم وحجاج تصاحبه علامات من الاندهاش والاعتراض ثم رضا ثم موافقة وفي النهاية قال حجاج:

- حاضر حاضر.

و من سريرها نادت أمه:

- كريم تعالى... أوعدني تبلغ البوليس وتبعد عن الناس دي انت مش قدهم.

رد كريم وهو ينظر إلى وجهها المتورم:

- حاضر يا ماما، ما تخافيش عليا.

ثم ابتسمت الأم بصعوبة وقالت:

- مش معنى انها حلوة انك تضيع نفسك عشانها، انت حبتها يا واد؟

نظر إليها كريم باستغراب معقود الحاجبين، غير مصدق ما تتحدث فيه وهي في ذلك الوضع، فلم يرد عليها وخرج هو وحجاج من الغرفة حيث كانت هبة تنتظرهما، فأشار إليها كريم بالاستعداد للذهاب فنهضت من مكانها وقال كريم لحجاج:

- خلي بالك من ماما يا حجاج، وما تنساش اللي قولتلك عليه.

أشار حجاج لعينيه أن اطمئن...

وذهب كريم وهبة ليكملا طريقهما الذي أصبح مشتركًا وشائكًا.

***

أسفل البناية وقف كريم ناظرًا إلى السماء غير قادر على نسيان منظر أمه الراقدة أرضًا وغارقة في دمائها وكم كان قاسيًا عليه هذا المنظر! كان يلوم نفسه على ما حدث لها، ولكن ما حدث جعل من مساندة هبة دافعًا أكبر بكثير من ذي قبل، لقد تحولت المسألة لديه لانتقام شخصي سيدفع من فعله الكثير نظير فعلته... وكانت هبة محترمة صمته الحزين منتظرة أن يتحدث بأي شيء، حتى قال:

- تعرفي حد اسمه صادق الدلاتوني؟

- آه أعرفه، ده السمسار بتاعي، انت عرفت اسمه منين!

- ده اللي كان باعت الراجل اللي وشوشك واحنا في المسيرة.

- مستحيل، قصدك ان صادق هو اللي بيعمل فيا كده السنين اللي فاتت دي كلها! ده أنا اعرفه من سنين وعمري ما حسيت انه طمعان في حاجة.

انفعل كريم عليها:

- طبعا مش هتاخدي بالك ما هو لو بتاخدي بالك ما كنش ده بقى حالك، ما تحكميش غير لما نتأكد الأول، قوليلي بس يعني ايه السمسار بتاعك وهو مش انتي عندك ٣ شقق بتتنقلي ما بينهم، محتاجة سمسمار في ايه؟

ابتلعت هبة عصبيته وردت:

- لأ، أنا عندي شاليه في الساحل الشمالي وهو اللي بيأجرهولي كل سنة في الصيف.

تعجب كريم مفكرًا وسألها:

- هو انتي أبوكي كان بيشتغل ايه يا هبة عشان يبقى عنده ٣ شقق في أنضف حتت في القاهرة وشاليه في الساحل الشمالي!

- سفير.

- لا مدام سفير يبقى أكيد فيه حاجات تانية غير الشقق والشاليه، صح؟

بلعت هبة ريقها لأنها تعلم أنه سيغضب حتمًا أنها أخفت عنه تلك المعلومات من البداية، فرددت ببطء:

- فلوس في البنك.

- طب بتقولي مستحيل ليه ان هو اللي كان بيُضرك وانتي عندك كل الحاجات دي! ده اكيد هو اللي مدمر لك حياتك.

- لأ صادق ما يعرفش أي حاجة عن أملاكي دي كلها غير شقة مدينة نصر والشاليه اللي بيأجرهولي بس.

وضع كريم يده في جيب سرواله وهو يتحرك يمينًا ويسارًا مفكرًا ماذا سيفعل الآن وما هو التصرف المناسب للموقف، وبجواره هبة تتابع تحركاته حتى طال انتظارها فسألته:

- هنعمل ايه؟

وقف كريم محملقًا فيها مفكرًا ثم رد وكأنه لم يسمعها:

- أنا عايز اعرف اشمعنى صادق ده عن كل الناس اللي وثقتي فيه وعرفتيه حاجات عنك؟

- أنا ما وثقتش فيه، بس انا معرفش غيره وهو كمان ما يعرفش حاجة عني، هو بس كل سنة بيأجرلي شاليه الساحل ويحولي فلوسه على البنك، وانت عارف التعامل كله بقى إلكتروني دلوقتي فما بقتش احتاج اتعامل معاه شخصيا عشان أمضي اوراق زي الأول.

- طب ما هو ممكن يكون بيسرقك، بياخد نسبة كبيرة وما بيقولكيش.

نظرت إليه مفكرة لثانيتين ثم ردت في حيرة:

- ممكن بس انا هعمل ايه يا كريم ما انا معرفش غيره.

صمت كريم نافثًا غضبًا من أنفه، وينظر إلى سماء مدينة نصر المتعكرة بعوادم السيارات، فقاطعته مجددًا:

- هنتصرف ازاي!

- هنروح لصادق ده طبعا.

- دلوقتي!

- آه دلوقتي، دي فيها مشكلة بالنسبالك؟

صمتت هبة لبرهة ثم قالت:

- لأ ابدا، بس...

- بس إيه!

اقتربت منه خطوتين وقالت بخفوت:

- أنا مش عايزة أكمل يا كريم.

تعجب كريم وانعقد حاجباه قائلًا:

- مش عايزة تكملي إيه؟

- أنا شايفة كده خلاص، كفاية اللي أنا عرفته وكفاية اللي حصلك.

- انتي عرفتي حاجة؟

- أيوه صادق هو اللي كان بيعمل كل ده فيا.

- لأ طبعا، صادق ده ايه قوته في انه يفضل حوالي ١٣ سنة بيبعتلك ناس تعيشك في خوف ورعب وايه المصلحة اللي عايدة عليه وانتي بتقولي ان كان بيأجرلك حاجتك بس، وبعدين عايزة تفهميني ان سمسار هو اللي عمل في امي كده.

- كريم انا مش عايزة أكمل، انا حاسة ان الموضوع بيكبر وبدأت اخاف، انا كنت فاكرة ان الموضوع ابسط من كده...

صمت كريم مفكرًا قليلًا ثم قال:

- عندك حق فعلا، أنا كمان كنت فاكر ان الموضوع ابسط من كده، كنت فاكر ان آخر الخط الواد اللي ضايقك واحنا وسط الناس بس طلع فيه حد تاني، والسمسارده باين انه مش آخر الخط، أكيد فيه حد وراه.

استغلت هبة ذلك الخوف المتسلل إلى صوت كريم وأفكاره لتزودها قائلة:

- أيوه صح عندك حق، احنا مجرد اتنين عاديين الله أعلم هنقدرعلى اللي جي واللا لأ.

- صح ممكن ما نقدرش على اللي جي، انا اسيبك دلوقتي وانت ترجعي لعيشتك اللي كنت عايشاها كل يومين في شقة عمالة تجري وتستخبي في الضلمة يدوب أغلى حلم عندك انك تعرفي تنامي كويس مش حتى تكلي أكلة كويسة، مش قادرة ترفعي عينك في وش نفسك حتى، بس الأول بدل ما انتي كنتي بتجري وانتي ضحية لأ انتي دلوقتي هتجري وانتي عارفة مين اللي بتجري منه ومتأكدة انك جبانة، صح، وانا كمان اخاف واستخبى زيك بعد اللي حصل لأمي.

بدأت عين هبة تغرق في الدموع وهي تسمع كلام كريم الساخر القاسي كما تعلم أنه وضعها أمام اختيارواحد، وهو أنها يجب أن ترفض الهروب مكملة الطريق معه ولكنها غيرقادرة على ذلك، فردت بصوت مرتعش بخيبة أمل:

- أمال اعمل ايه طيب؟

مسكها كريم من كتفها، وهو ينظرلعينيها بقوة أملًا أن تنتقل قوته إليها قائلًا:

- ما بقاش قدامك غير انك تكملي وانا معاكي، حتى لو خايفة، كان ممكن تعيشي وانتي هربانة عشان ما فيش حل تاني، بس هتعيشي ازاي وانت جبانة؟ اوعدك انا لو لقيت الموضوع اكبر مني هشوفلك حل تاني غير المواجهة، ليها ميت حل، ممكن نبلغ البوليس مثلا بعد ما نعرف مين اللي بيعمل كده، احنا خدنا خطوة واحدة خلت الوضع كله اختلف عن الأول...

هزت رأسها نفيًا وأطرقت رأسها إلى أسفل قائلة:

- أنا خايفة يا كريم خايفة.

لانت ملامح كريم للغاية، مع نبرتها الخافتة وملامحها الرقيقة التي تذرف دمعًا وشعره الذي يهتز، فتنهد وكأن قولها الخافت برد غضبه كله فقال لها بمنتهى الهدوء مقتربًا منها هو الآخر ليسألها:

- الخوف إحساس وحش قوي؟

- قوي يا كريم، انا بكره نفسي من كتر الخوف اللي جوايا.

- طب وازاي ممكن نعيش مع بعض والخوف ملينا كده.

كانت حزينة والخوف يملؤها ولكن تصريحه المباشر ببقائه معها أزال كل ذرة خوف داخلها... إن للخوف وجهًا آخر جميلًا في بعض الأحيان عندما يصب من غيرك عليك فيكون له مذاق جديد وممتع لم تتذوقه هبة من قبل قط، كان تبادل النظرات بينهما يكفيها أي شيء آخر، لا تريد أن يلمسها ولا يحتضنها، يكفي أن ينظر إليها تلك النظرة فقط ليطرد كل الخوف من داخلها وتذهب معه بدون أي تردد أو أي عناد أنثوي، وبدون أي كلام جذبها كريم مستجيبةً بمنتهى الطاعة والأمان لينصرفا.

****

خلف مكتب متوسط الحجم، جلس صادق الدلاتوني رجل بدين، ماسك بيمينه سيجارة مشتعلة مرتديًا حلة رمادية غير مناسبة مطلقًا مع حجمه، وأمام المكتب جلس رجل أنيق بحلة أنيقة للغاية في الأربعينيات من عمره موجهًا حديثه إلى صادق:

- حولتلي فلوس الإيجار يا صادق؟

رد صادق بابتسامة واثقة وهو ينفث دخان سيجارته ويخرج محموله من مكتبه ليقوم ببعض العمليات عليه قائلًا:

- كله متظبط يا باشا زي كل مرة، ما تقلقش، في حسابك... بس حضرتك منورني والله، بقالك فترة ما جتش بنفسك تزورني دايما تبعتلي حد من طرفك.

أخرج الجالس أمام صادق محموله ليتأكد من وصول المبلغ قائلًا:

- أنا ما بقلقش يا صادق.

ابتسم صادق في عدم ثقة ثم رن جرس هاتفه، فوجد هبة تتصل به، فأشار إلى الجالس أمامه وقال:

- دي هبة يا باشا.

- ودي عايزة ايه انت مش خلصتلها حاجتها؟

- آه.

- طب شوفها عايزة ايه.

فتح صادق الخط:

- ألو مدام هبة ازي حضرتك عاملة ايه؟... انا كله تمام الحمدلله... أأمريني يا فندم... تمام... تمام... شقة إيه؟... في المعادي؟... لأ مفيش مشكلة طبعا تنورويني في اي وقت، بكرة بعد العصر مناسب؟... دلوقتي!

نهض الجالس أمامه بفزع وهو ينظر إلى صادق فتابع:

- اصل أنا معايا زبون مهم دلوقتي... ممكن كمان نص ساعة كده اكون خلصت معاه؟... خلاص تمام... تنوريني... مستنيكي... مع السلامة.

أغلق الخط، فسأله الجالس أمامه وهو مازال واقفًا مفزوعًا:

- مالها شقة المعادي؟

- بتقولي عندها شقة في المعادي وفيه حد عايز يشتريها ومعاها دلوقتي وعايزين يجولي نروح نعاين الشقة عشان اتفقلها معاه... هو حضرتك كنت عارف انها عندها شقة في المعادي؟

كان ضيفه سارحًا في التفكير ولم يلتفت إلى سؤال صادق، ثم رد بصوت خافت محدثًا نفسه:

- هبة بتعمل حاجات غريبة كتير الأيام دي مش مفهمومة! أنا همشي دلوقتي وأول ما تخلص معاها كلمني وقولي ايه اللي حصل.

انصرف ذلك المتكلم الأنيق وترك صادق في حيرة دون أن يجيبه عن أي أسئلة وشعر أيضًا أن شيئًا غريبًا يحدث فهو لم ير الباشا قلقًا قطُّ كما رآه اليوم.

***

أغلقت هبة الخط بعد أن حدثت صادق، كانت واقفة بجوار كريم في شارع جسر السويس بجوار البناية التي فيها مكتب صادق وأشار إليها كريم أنها فعلت ما طلبه منها بشكل جيد، فقالت له:

- أنا قلقانة قوي يا كريم.

نظر إليها كريم ثم قال:

- ما تقلقيش... إن شاء الله هنخلص كل حاجة النهارده.

- يا رب.

نظر كريم إلى المحلات المتراصة أسفل العمائر يتفحصها سريعًا، فوجد وسطها صيدلية، فقال لهبة:

- بقولك ايه انا هخش اسألك في الصيدلية دي عندهم على حقنة الفايتمينات اللي كتبهالك محمد... عشان لو عندهم تخديها دلوقتي بدل ما احنا واقفين كده.

ابتسمت هبة لما شعرت منه باهتمام وأومأت برأسها مشجعة للفكرة، فتركها كريم وحدها ودخل الصيدلية...

وقفت هبة في الشارع وحدها سعيدة بكل شيء يحدث في حياتها الآن؛ الأمان الذي تشعر به مع كريم في ملازمته لها طوال الوقت بعد أن كانت تعيش وحدها في ظلام الليل الذي كان يؤويها، المشاعر الدافئة التي منحها إياها كريم بعلمه وبدون علمه، ولكن الجديد عليها الآن أنها لا تعلم كيف كانت تحلم طوال تلك السنين أن تزيح ذلك الكابوس! تتضارب مشاعرها الآن راجية أن يظل كل شيء كما كان عليه حتى يظل كريم بجوارها.

تنهدت تنهيدة حارة لتخرج الحيرة من جوفها، ثم لمحت شخصًا يخرج من عمارة مكتب صادق، تعرفه جيدًا ولكنها لم تره منذ زمن طويل؛ فزعت للغاية ورجعت إلى الخلف مسرعة لتتوارى عن النظر، ولكنَّ رجليها رفضتا طلبها وتشنجتا مرة أخرى لتسقط على ظهرها متألمة، زحفت إلى الخلف وهي جالسة حتى دخلت مدخل عمارة... خرج كريم من الصيدلية، يبحث عنها، ثم لمحها داخل العمارة جالسة أرضًا، فذهب إليها قائلًا:

- فيه ايه! رجليكي أفشت تاني؟

هزت رأسها إيجابًا متألمة قائلة:

- مش قادرة، قافشة جامد قوي.

- طيب اسندي على كتفي ادخلك الصيدلية، يشوفولك حل.

- لأ، هي شوية وتفك.

- هبة المرة اللي فاتت، قعدت نص ساعة عشان تفك، مش هينفع نستنى كل ده.

- وأنا مش هينفع اسند عليك وتدخلني الصيدلية، أنا مش مشلولة.

- خلاص يبقى ما فيش غير حل واحد.

نظرت إليه في تساؤل عاقدة حاجبيها ثم بادلها كريم النظرات، وبكل هدوء وثقة وبدون موافقة منها مد يده، وبدأ تدليك فخذيها، من الأسفل إلى أعلى من الأمام ومن الخلف مقتربًا من بعض الأماكن الممنوعة ولكنها لم تعترض على تصرفه وإنما أغمضت عينيها متألمة من تشنج عضلات فخذيها المتيبسة، مرت بعض الدقائق وهو يمارس تدليكها وعند انتهائه قال لها:

- جربي كده.

حاولت النهوض بهدوء، كان الألم قد خف قليلًا ولكنها بقليلِ محاولةٍ تمكنت من الوقوف، نظرت إليه ثم قالت:

- شكرًا يا كريم، أنا كده أحسن.

رد مبتسمًا:

- تعالي طيب عشان تاخدي حقنة الفيتامينات في الصيدلية.

مسكت كفه وبعرجة خفيفة سارت بجواره صوب الصيدلية ولكنها خطفت نظرة خلفها للتأكد من عدم وجود ذلك الرجل الذي اختبأت منه، الذي أثارداخلها عدة تساؤلات، ولم أتى هنا وهل كانت صدفة!

****

بعد أن مرا على السكرتيرة وسمحت لهما بالدخول، دخلا معًا على صادق الدلاتوني الذي كان يدخن سيجارة مرحبًا بهم وطلب منهما الجلوس وسألهما ماذا يشربان فرفضا بهدوء ولباقة، ثم قالت له هبة:

- ازيك يا صادق، عاش من شافك يا أخي، أنا آخر مرة شوفتك من امتى؟

نظر صادق إلى أعلى ليتذكر ثم رد:

- يااااه ده من زمان قوي، أعتقد من خمس سنين.

- أيوه أيوه كان ساعة لما جبتلي الشاليه بتاع هاسيندا؟

- أيوه صح صح يا مدام هبة، أحوالك عاملة ايه؟

- أنا تمام، خلينا نخش في الموضوع، الأستاذ كريم عايز يشتري شقة المعادي بتاعتي وعايزاك تيجي معانا وهو بيتفرج على الشقة عشان تحددلي معاه السعر.

نظر صادق إلى كريم وبثقة سأله:

- وحضرتك بتشغل ايه يا استاذ كريم؟

وضع كريم ساقًا على ساق ورد بطريقة تزرع الاطمئنان داخل صادق:

- أنا عندي محل دهب وارثه عن ابويا.

رفع صادق حاجبيه في إعجاب وقال لهما:

- تمام تمام، طيب تحبوا نروح نبص على الشقة امتى؟ بكرا الضهر مناسب؟

أجابت هبة:

- لأ لأ، الأستاذ كريم مستعجل جدا ومسافر كمان كام يوم وعايز يخلص الإجراءات قبل ما يسافر لو عجبته الشقة، فنروح نشوفها دلوقتي عشان يقرر النهارده اذا كان هياخدها واللا لأ.

- بس دلوقتي الوقت متأخر قوي وانا...

- يا صادق لا متأخر ولا حاجة، الساعة لسه تمانية والمشوار مش هياخد ساعة، ولووراك حاجة الغيها، هديك نسبة حلوة.

- مش مسألة نسبة يا مدام هبة طبعًا، حضرتك زبونتي من زمان.

- طيب مفيش مشكلة اهو، معاك عربيتك؟

. آه معايا.

. طيب جميل هنروح معاك بيها، عشان في واحدة صاحبتي وصلتنا لغاية هنا بعربيتي وبعدين خدتها وراحت تعمل بيها مشوار.

رد صادق في تعجب لم يقوَ على إخفائه -فهو يعلم جيدًا عدم وجود أي أصدقاء لها وأنها لا تملك أي سيارات-:

- عربيتك!

ردت هبة وهي تهم بالنهوض:

- آه عربيتي يا صادق، مستغرب ليه؟

- لا يا مدام مش مستغرب ولا حاجة.

- طيب يلا بينا.

نهضوا ثلاثتهم منصرفين وعلامات القلق واضحة على وجه صادق، وكريم يتفحص كل خلجة من خلجاته ويريد أن يصافحه أو يلمسه بأي شكل ليرى ما يعتمر في رأسه من مشاهد ولكنه ليس الوقت المناسب.

(١٢)

دلف كل من هبة وصادق وكريم شقة المعادي، ناظرين إلى أرجائها، الأتربة تغطي الأثاث ورائحة العطن تملأ هواء الشقة، يعلم صادق أن أي مخلوق لم يدخل الشقة من منذ فترة كبيرة، فأخذ ينظر إلى أرجائها ويتجول فيها ملقيًا نظرات على الغرف والصالة والمطبخ والحمام، ثم وضع يده على الحائط لامسًا جودة الدهان ولكن التراب كان أغلب، ثم توقف ناظرًا إلى هبة التي كانت واقفة وحدها وقال:

- فين الأستاذ كريم؟

ردت بوجه جامد تظهر عليه بعض علامات الخوف:

- في الحمام.

- حضرتك تعرفي كريم ده كويس يا مدام هبة؟

- آه يا صادق، جايلي عن طريق حد معرفة وقالي انه تمام.

أومأ صادق برأسه متفهمًا وكان سيوشك على النطق لقول شيء ما... لكن كريم ضربه بشيء ثقيل على رأسه من الخلف فسقط أرضًا مغشيًّا عليه، تراجعت هبة مفزوعة واضعة كفيها على فمها وقالت لكريم:

- أنت قتلته!

نظر إليها كريم بغضب شديد ورد:

- هبة أنا مش عايز هبل، أنا ما بقتلش.

- عرفت ازاي أنه ما متش طيب؟

- ما تبصي عليه ما هو بيتنفس قدامك أهو.

أحضر كريم مقعدًا من مقاعد السفرة، ثم دخل المطبخ باحثًا عن شيء ما، فلم يجده فخرج وهو ما زال غاضبًا قائلًا:

- ما عندكيش أي حبل؟

فكرت ثواني ثم هزت رأسها نفيًا، فسألها:

- عندك منشر؟

- آه

- طب خشي اقطعيلي الحبال بتعته كلها، ومن غير ما تنوري نور البلكونة، بس بسرعة قبل ما يفوق.

انصرفت في طاعة لتحضر سكينًا حادًا، وهو يتجول في غرف الشقة باحثًا عن شيء ما، بعد برهة من الوقت تقابلا في الصالة وهي تحمل مجموعة من الحبال وتنهج بعنف لما بذلته من مجهود، وضع كريم ذراعيه تحت إبط صادق ليحمله ويجلسه على الكرسي ويشير إلى هبة أن تناوله الحبال والسكين، وبإحكام شديد مستغرقًا وقتًا ليس بقليل ربط كفي صادق خلف ظهر المقعد وقدميه كذلك، ربطهما بقوة، ثم جلس أرضًا ينهج ويتنفس في سرعة فقد كان صادق بدينًا ثقيل الوزن مما أرهقه للغاية، كانت يده ترتعش من توتره الذي بلغ ذروته، لاحظت هبة رعشة يده فسألته:

- مالك يا كريم، انت خايف؟

- مش عايزك تفتكري إني بعمل كده عادي أو حتى عملته قبل كده، ومش عارف صح واللا غلط أصلا.

- خلاص يا كريم فك صادق وتعالى نوقف اللي بنعمله ده، أنا أصلا مش فاهمة انت بتعمل ايه!

- ما بقاش ينفع نرجع في كلامنا دلوقتي؛ أنا ضربته جوه شقتك، لو فكناه ابسط بلاغ هيوديكي في داهية، لازم نكمل.

- نكمل ايه يا كريم أنا مش فاهمة حاجة، فهمني انت بتعمل ايه؟

- مش هافهمك حاجة، لما بتتصرفي تلقائي بتساعديني اكتر، تخطيطيك دايما فاشل.

صمتا بضع دقائق، ثم نهض كريم ليحضر كوب ماء وقذف به وجه صادق الذي شهق فائقًا ناظرًا إليهما بفزع شديد متفحصًا نفسه المربوطة في الكرسي بإحكام، حاول فك نفسه فلم يقوَ فقال:

- انتو ربطني كده ليه، فيه ايه يا مدام هبة!

بنبرة غاضبة وبصوت أجش خافت منه هبة، بينما قال له كريم:

- عايز ايه من هبة يا صادق!

في حيرة حقيقية شديدة تملأ وجه صادق رد:

- مش عايز حاجة هعوز ايه بس، ده انا طول عمري بخدمها بما يرضي الله!

- بعت وراها عيل من عيالك ليه النهارده عشان يخوفها وانا كنت معاها ولما سألته قاللي انه جي من طرفك.

- طرف مين يا كريم باشا، انا معرفش حاجة من اللي انت بتقوله، ما تقولي حاجة يا مدام هبة.

صدمة الموقف كله، أوصدت فم هبة عن الكلام تراقب كريم في صمت فهي لم تتخيل لحظة أن حل مشكلتها يكون باختطاف واستجواب، وهي لا تعلم ماذا تفعل حقًا، لاحظ كريم جمود هبة فأكمل سؤاله لصادق:

- خليك معايا أنا، مبوظ حياة هبة وبتراقبها طول الوقت ليه؟

- يا كريم بيه انا مش مبوظ حاجة ولا أعرف حاجة من اللي بتقوله ده كله.

أقبل كريم على صادق وهو يطرق جسده بالسكين الذي كان يستخدمه في تقطيع الحبال وقال له:

- بص يا صادق لو فاكر اني مكتفك عشان افضل اسألك كده بس، أكيد تبقى غبي، لو ما قولتش أي حاجة تفدني، ههينك يا صادق، عارف يعني ايه ههينك، هقلعك ملط قدمنا وهعمل كل حاجة قذرة ممكن تتخيلها، ولو أصريت على موقفك وعملت شجاع ممكن أأفور واشيل ضوافرك واقطعلك جفونك ولأني مش محترف فهعمل الحاجات دي لأول مرة ...

كانت هبة تنظر إلى كريم، كان قاسي الملامح وكانت عيناه محمرتين، خافت أن يكون غضبه قد أفلت زمام عقله خصوصًا وهو يحمل سكينًا، فتدخلت قائلة:

- خلاص يا كريم أ...

لم يمهلها كريم فرصة للكلام فأشار إليها بالسكين صارخًا:

- اسكتـي!

وكأنه قذفها بسهم من الخوف رشق في صدرها قتلها للأبد، ثم نظر إلى صادق مرة ثانية وقال:

- ها يا عم صادق، آخر مرة هسألك من غير أذى، إيه مصلحتك تأذي هبة السنين اللي فاتت دي كلها وليه كنت باعت حد وراها يهددها؟

كان الخوف قد تملك من صادق، لم يكن خوفه من كريم خوف الضعيف من القوي وإنما كان خوفًا من شخص فقد السيطرة على نفسه وركبته لوثةٌ ما لامحًا لمحة من جنون في عينيه، ولكنه لا يقدر على إجابته فصمت دون إجابة، هز كريم رأسه متفهمًا ثم كور قبضته وبأقصى قوته سحق أنف صادق الذي دفق

دمًا، ومن قوة الضربة ترنح بالكرسي إلى الخلف قليلًا فدفعه كريم ليقسط على ظهره بالكرسي أرضًا، صرخ صادق غير مصدق ما يحدث فيه، والدم الغزير يتدفق من أنفه المكسور داخل حلقه مما صعب عليه التنفس، فأخذ يحشرج طالبًا النجدة؛ فلم تقوَ هبة على منظر الدماء الغزيرة فاندفعت ترفع صادق فلم تقدر من ثقل وزنه، أمسكها كريم من رسغها وأبعدها عنه وهو ينظر إليها بكامل غضبه، فابتعدت، رفع كريم المقعد ثم أخذ صادق يبصق الدماء التي كادت أن تغلق قصبته الهوائية.

- ها، ناوي تقول أي حاجة، واللا أبدأ استخدم السكينة.

كان صادق بدأ في البكاء مثل الأطفال وهو يرد:

- انا معرفش حاجة والله، مش انا اللي بعت الواد.

تنهد كريم مبتسمًا وهو شاعر بالانتصار قائلًا:

- حلو قوي، مين اللي بعته؟

عقدت هبة حاجبيها من إجابة صادق، كانت صدقت أنه لا يعلم شيئًا وأن كريم قد بالغ في غضبه فقط، ولكن على ما يبدو أن صادق هذا يعلم الكثير، فصرخ كريم في وجهه:

- مين اللي بيبعت الناس دي يا ابن... لو ما قلتش هطلع... أمك.

كان السباب من هذا النوع غير مألوف على أذن هبة من هذا القرب مما أثار اشمئزازها، فوضعت يدها على أذنيها وقالت:

- كريم، بلاش الشتايم دي أرجوك.

تجاهل كريم كلام هبة تمامًا وبعصبية وعجالة دخل إحدى الغرف وسُمعت جلبة، ثم خرج كريم منها حاملًا أحد الألواح الخشبية الخاصة بالسرير (المُلة) وبعزم شديد رفع كريم اللوح وضرب به صادق مطيحًا بوجهه مما أسقطه أرضًا على جانبه متألمًا متأوهًا، فقذف كريم اللوح الخشبي بعيدًا ثم أمسك صادق من ياقة القميص ليعدل المقعد صارخًا في وجهه قاذفًا بعض الرذاذ في وجهه:

- مين اللي بيعمل كده فيها!

كان هذا أقصى ما يمكن أن يتحمله صادق، حيث أعياه الضرب وفسخ كرامته فقال بصوت خافت والدماء تتقطر من فمه:

- طلال، طلال عاكف.

****

تسمرت هبة مكانها وكريم ينظر إليها بعد أن نطق صادق اسم المتسبب في تعاسة حياتها كلها مذ تزوجته وحتى اللحظة الراهنة، التفت إليها كريم قائلًا:

- طلال ده اللي كان جوزك؟

هزت رأسها إيجابًا فتابع كريم وكأنه يلومها:

- ما انا قولتلك من الأول انه هو وانتي قولتيلي لأ.

زاد اللوم ضغطًا على أعصابها التالفة فردت بحدة:

- أنا وطلال ما كناش بنحب بعض ولا كنا عايزين نعيش مع بعض زي ما يكون كان فيه حد جابرنا احنا الاتنين نفضل متجوزين بالعافية عشان لما اتطلق احمد ربنا على الوحدة، واول ما طلبت منه الطلاق، وافق كأنه حد كان جابره على كده، لو كان عايز مني اي مصلحة ما كنش طلقني، وبعدين هو استفاد ايه دلوقتي لما عيشني في خوف كل السنين دي.

طبق صمت على المكان يتخلله شخير صادق المتألم، وأعاد كريم تفكيره في كلام هبة الذي بدا منطقيًا للغاية حتى أنها زرعت الشك في اعتراف صادق، فمسك شعر صادق ورفع رأسه عاليًا وسأله:

- آخر مرة شوفت طلال كان امتى؟

رد صادق بإعياء:

- النهارده الصبح.

ابتسم كريم ابتسامة جانبية وهو يمسك شعره فلم ير أي شيء من إجابة صادق فعلم أنه يكذب، فأرجع رأسه إلى الخلف حتى فرد رقبته المكتظة بالدهون، وهوى عليها بسيف يده بقوة، ثم تركه ينبح ويبصق ويسعل متألمًا من الضربة فاستطرد كريم:

- أنا ما بحبش الكدب يا صادق، أي حاجة هتقولها مش حقيقية هعرف وهتزود وجعك بس، وخلي بالك أنا خلصت وشك مبقاش فيه حتة ممكن ابوظها اكتر من كده، لو هتطول في الكدب هبدأ اخش على ايدك ورجلك.

- من يو... يومين قابلته من يومين على القهوة اللي متعو... متعودين نتقابل فيها.

ما زال كريم ممسكًا بشعره بقوة، فرأى ذلك المشهد وهو جالس مع طلال، الشخص نفسه الذي رآه عندما حكت عنه هبة حين تطلقا، كان شكله قد تغير قليلًا لفرق زمن الحكاية ولكنه هو، ترك شعر صادق بعنف ماسحًا كفه في سرواله متقززًا من عرقه ثم نظر إلى هبة التي سألته:

- هو؟

- آه هو نفس الشخص اللي حكتيله عنه، ليلة طلاقكو.

- كان بيقوله ايه؟

- مش واضح، من كتر الضرب مش مخليه يفتكر غير صور بس، مخه مشغول في الوجع اللي جسمه حاسس بيه، فمش جايب صوت، مش قادر اسمع بيقولوا ايه.

صمتت هبة، واقترب كريم من صادق، ممسكًا بالسكين ليقطع جزءًا من سرواله ويكشف فخذه يلمسه منه بدلًا من شعره المتعرق وفي الوقت نفسه يهينه أكثر ويعزز خوفه، ثم تابع:

- بص، قدامك حل من اتنين، يا تقول كنتوا بتتكلموا في ايه انت وطلال آخر مرة اتقابلتوا، يا تجبلنا طلال ده هنا نسأله احنا بنفسنا.

جذبت هبة كريم من قميصه بقوة قائلة:

- انت بتقول ايه، طلال ده ظابط شرطة ما ينفعش يجي هنا واحنا عاملين في صادق كده.

رد كريم:

- استنـــي.

نزع يدها برفق وأكمل لصادق:

- ها قررت هتعمل ايه؟

كانت عينا صادق تدوران في محجريهما بعدم اتزان، فرد:

- اللي تشوفوه يا باشا... أخليه يجي هنا احسن.

- عين العقل عشان يخفف من عليك شوية برضو، اسمع بقه هتعمل ايه عشان تخليه يجي.

****

هدأ احتدام الأجواء والأنفس، مرت نصف ساعة وكل من هبة وكريم جالسين تاركين صادق يلتقط أنفاسه، ثم نهض كريم ليقول لصادق:

- عرفت هتعمل ايه؟

هز صادق رأسه إيجابًا، ثم أدخل كريم يده في جيب سروال صادق بعنف ليخرج هاتفه الخاص، وأخرج اسم طلال وسأله عن صحة الرقم فأجابه أنه هو، فطلبه وشغل مكبر الصوت ليسمعا ذلك الحوار بين صادق وطلال:

- طلال.

- عايز ايه يا صادق، خلص.

- الحقني يا باشا مدام هبة جابتني شقتها في المعادي ومربطاني.

- جبتك شقة المعادي ليه! ورحت معاها ليه؟

- قالتلي فيه واحد عايز يتفرج على الشقة عشان يشتريها، فطلبت مني اكون موجود معاها عشان ما يضحكش عليها في السعر.

- وانت صدقتها يا غبي؟ ما كلمتنيش ليه الأول؟

- كل حاجة جت بسرعة ما لحقتش اكلمك ومش هو ده الموضوع، الموضوع ان طلع ما فيش زبون ولا حاجة، كانت عملالي كمين، حبساني في أوضة وقافلة عليا ومش عارف اعمل ايه، ما لاقتش قدامي غيرك اكلمه.

- يا غبي بتكلمني ليه، اوعى تكون جبتلها سيرتي في أي حاجة؟

- ما جبتش سيرتك في أي حاجة، هي أصلا ما سألتنيش عن أي حاجة، تعالي يا طلال باشا الحقني دي شكلها ناويالي على نية مش تمام.

- ما ليش فيه يا صادق اتصرف.

- يعني ايه ما لكش فيه، لأ لازم تيجيلي ولو ما جتش انا هخربها وانت عارف هخربها يعني ايه ومش هيهمني حد.

انعقد حاجبا كريم وهبة وهما يتبادلان النظرات بعد سماعهما كلام صادق وطلال، ثم تابع صادق كلامه:

- وانا لو بعت القضية هنتسوح كلنا، وما حدش هيعرف ينجدك وينجدني... ها ساكت ليه!

- اخرس طيب، أنا جايلك.

- طيب مستنيك متتأخرش، عارف المكان، طيب مستنيك.

أغلق كريم الخط وقال لصادق:

- ده واضح ان في شغل كتير قوي ما بينكو ما شاء الله، انت ماسك عليه حاجة؟

بعيني صادق المتورمتين وأنفه الدامي نظر إلى كريم دون أن يجيب، التفت كريم إلى هبة المتسمرة في مكانها تنظر إلى صادق، فقال لها في خفوت:

- مالك يا هبة! امسكي نفسك، عشان شكلك كده هتسمعي حاجات أغرب من أي خيال النهارده.

حدقت فيه وقالت:

- كل السنين دي، وطلع في الآخر طليقي هو اللي بيعمل فيا كل ده!

- لا يا هبة، انت كلامك صح، انا معتقدش ان طلال ورا كل حاجة بتحصلك من سنين.

- أمال لو ما كنش هو، يبقى مين!

- مش عارف، بس الشخص اللي بيدمر حياة بني آدم بالأسلوب اللي حصل معاكي، بيبقى آخر حد ممكن نتصوره، اللي بيدمر حياة حد بالطريقة دي بيبقى أبعد واحد عن الصورة، وممكن يكون هو اللي بيتحكم في الصورة أصلا.

****

مرت ساعة أخرى وكأنها دهر، الجو حار وثلاثتهم جالسون متعرقين، منتظرين قدوم طلال، ثم سمعوا صوت جلبة خارج الشقة، فزعت هبة واقفة مكانها، وجرى كريم ليقف مستعدًا خلف الباب، كان الباب مفتوحًا فدفعه طلال بحذر حتى دخل فوجد هبة واقفة وبجوارها صادق مربوطًا دامي الوجه في حالة إعياء شديد، فنظر إلى هبة نظرة سريعة متفحصًا إياها ليقارنها بآخر صورة لها في ذهنه وقال:

- هبة، انتي عارفة انتي بتعملي ايه، انتي كده خاطفاه.

نظرت إليه هبة متذكرة تلك السنين التي قضتها متزوجة طلال، كانت من أمر سنين حياتها، فارق السن واضح عليه، رجوع طلال ووقوفها أمامه أربكها للغاية فهي لم تكن تريد أن تراه أبدًا، كانت تظن أن الماضي يختفي عندما تتجاهله ولكنها اليوم عرفت أنه لا يتركنا أبدًا ما حيينا، وفي أثناء تحديقها فيه سقط طلال أرضًا مترنحًا من أثر ضربتين بأداة ثقيلة من كريم، وضع كريم أداته في جيبه الخلفي ثم كما فعل مع صادق جره من تحت إبطيه، وأجلسه على كرسي بجوار صادق وشرع في ربط كفيه خلف ظهر المقعد ثم قدميه، كانت رأسه متدلية لفقدانه الوعي، ثم بكوب ماء بارد قذفه في وجهه؛ فأفيق طلال متلفتًا حوله متفحصًا جسده المربوط

ثم نظر إلى كريم وهبة وقال:

- انتو عارفين انتو بتعملوا ايه ومع مين؟

رد كريم بثقة مزيفة تخفي ما في نفسه من توتر:

- عارفين انك ظابط ما تقلقش، وعارفين انك مش واخد احتياطاتك لأي حاجة عشان صادق ماسك عليك حاجات ما تحبش حد يعرفها، واللا إيه يا صادق؟

نظر طلال إلى صادق بحدة، فقال صادق خائفًا:

- أنا ما قلتش حاجة.

قاطعهما كريم:

- صادق ما قالش حاجة فعلًا، بس انت اللي هتقولي كل حاجة، كنت مبوظ حياة هبة ليه وايه علاقتك بصادق من الأساس واتجوزت هبة ليه وطلقتها ليه، وهتقولي مين وراك وبيقولك تعملوا كل ده!

ابتسم طلال بسخرية وقال:

- شكلك بتشوف أفلام كتير وفاكر انك لما بتتكلم بالطريقة دي هخاف واجوبك، انت اهبل يلا!

- انت مش شايف صادق حصل فيه إيه، على فكرة الموضوع كان مسلي جدا وممكن اكرر اللي عملته معاه فيك.

ابتسم طلال في سخرية ورد:

- عامة هو ما فيش أي إجابة لأسئلتك، صادق معرفة قديمة وخلاص مش اكتر من كده.

رجع كريم إلى الخلف ليقف بجوار هبة المرتعدة من هول الموقف وقال:

- ما تخليش أي حاجة تحصلهم دلوقتي تخليكي ترجعي في اللي احنا بنعمله، عشان هما يستهلوا اكتر من اللي عملناه وهنعمله.

مسكت هبة ذراع كريم وقالت له بصوت خافت مرتعش:

- كفاية كده يا كريم، ما تعملش فيهم حاجة، أنا خايفة.

- هبة خوفك هو اللي طول عمره موقفك مكانك وخلاكي تصبري السنين دي كلها تعيشي عيشة انتي مش عايزاها ورافضاها ومش معنى انك حصلك حادثتين كبار في حياتك، ما تخديش حقك وتسيبيه كده بقيت عمرك، انتي كنت غلطانة وربنا بعتني ليكي عشان أصححلك مفاهيمك.

قاطعهما طلال قائلًا:

- سيبك من العيل ده وما توديش نفسك في داهية يا هبة، انتي كده عايشة زي الفل هو اللي بيوهمك بكلام مش صح.

كانت محاولة طلال واضحة للتأثير على هبة مما أغضب كريم للغاية وكان لا بدَّ أن يثبت أنه شخص لا يستهان به على الإطلاق، فمسك اللوح الخشبي الملقى أرضًا، وبقوة أرجعه إلى الخلف ثم هوى به على وجهه محدثًا صوت طرقعة عالٍ، ولم يمهله فرصة لالتقاط أنفاسه، ألقى اللوح أرضًا ثم أحكم على رأس طلال وبجبهته ضرب أنفه الذي نزف على الفور ويبدو أنه كسر، ثم التقط السكين الملقى أسفل كرسي طلال وأحكم قبضته عليه وبأعنف ما فيه غرسه في فخذه، الذي أطلق صرخة عالية واحمرت عيناه ووجهه، ثم ترك كريم السكين مغروسًا في فخذه لأن هبة سحبته إلى الخلف بعد أن شعرت أنه فقد السيطرة على أعصابه وقالت صارخة:

- كفاية انت جرالك ايه، انت استحليت التعذيب!

كان كريم ينهج بقوة من المجهود وفوران مشاعره الذي سيطر عليه وقال وهو متعب:

- مش قلتلك الموضوع مسلي جدا وانت ما صدقتنيش، أنا عرفت دلوقتي ليه التعذيب حاجة موجودة من زمان، الموضوع طلع حلو بجد.

صاحت فيه هبة:

- انت اتجننت يا كريم!

تجاهلها كريم تمامًا، وقال لطلال صائحًا:

- هترد على كل أسئلتي دلوقتي واللا لأ؟

كانت ضربات كريم المتتالية المفاجئة التي تلقاها طلال على حين غفلة منه، جعلته يضع كريم في مكانه الصحيح بعد أن استهان به في البداية فهو لم يتوقع أن يصدر منه كل ذلك العنف، رفع رأسه كرهًا ناظرًا إلى كريم وأنفه ما زال يقطر دمًا وقال:

- عايز تعرف ايه؟

ابتسم كريم في انتصار وسأله:

- إيه علاقتك بصادق؟

- معرفة قديمة زي ما قولتلك مش اكتر من كده.

- واتجوزت هبة ليه وطلقتها بالسهولة دي ليه؟

- أنا كنت عايز اتجوز وواحد صاحبي هو اللي رشحلي هبة، فاتجوزتها عادي من غير أي غرض غير الجواز بس وفعلا كانت عجباني وكان نفسي أعيش معاها بقية حياتي.

قاطعت هبة الحوار بعنف لتسأل طلال:

- مين رشحني ليك عشان تتجوزني يا طلال؟

نقل طلال نظره بين هبة وكريم صامتًا دون أن يجيب، ففهم كريم رفضه الرد، فهوى بقبضته على عينيه فسقط طلال بكرسيه أرضا بدوي عالٍ، فعدله كريم مرة ثانية وبعين متورمة أجاب طلال بصوت مبحوح:

- حازم.

تشابك حاجبا هبة، وسألته:

- حازم مين؟

- حازم الطهطاوي.

مسكت هبة رأسها وكأنها قد أصيبت بجنون أو شيء ما، وهي تتحرك ذهابًا وإيابًا بتوتر، ثم وقفت أمامه وسألته بعنف:

- وهو ما قالكش وهو بيرشحني ليك انه كان متجوزني عرفي قبليك؟

انعقد حاجبا طلال للغاية وقال بصعوبة:

- متجوزك! لأ ما قاليش، ازاي متجوزك، انتي كنتي بنت...!

لم يكن هذا التصريح في حسبان هبة على الإطلاق، رجعت إلى الخلف مصعوقة تنظر إلى كريم الذي نظر إليها باستعجاب بارد دون أي مشاعر، في الواقع لم يكن على استعداد أن يتفاجأ بتلك المعلومات الآن في هذا التوقيت، وبحركة تلقائية دون أن ينزل عينه عن هبة وضع أصبعه على جبهة طلال المتعرقة ليرى ما تفوه به توًّا ومدى صحة ادعائه وبالفعل رأى كل المشاهد وتأكد بنفسه أن هبة كانت بكرًا لم يمسسها قبل طلال رجل ولكنه صمت ولم يكن صمته غضبًا وإنما كان مراجعة لنفسه ومبادئه ولم كان يساعدها من البداية وهل كانت تستحق

المساعدة من الأصل، استقر على إجابات كل الأسئلة بسرعة ولكن بقي إجابة سؤال واحد فقط، هل من حقه الندم أم لا، توجه واقفًا أمام هبة وسألها بنبرة جادة هادئة:

- كنتي بنت لما اتجوزتي حازم؟

كان سؤال كريم ملتويًا وذكيًّا للغاية من كريم وكانت الإجابة بنعم أو لا محض اتهام لها بأنها كانت كاذبة، لم تحسب هبة حسابها أن يفشي أي أحد سرًّا كهذا في يوم من الأيام وأمام من! أمام كريم الذي تحركت مشاعرها تجاهه، وبصوت تسلل إليه اهتزازات بكاء قالت هبة:

- كريم انت مش فاهم حاجة، انا هاشرحل...

صرخ كريم بها فجأة:

- قووووووليييي.

- آه، كنت بنت وانا متجوزة حازم.

و بعنف مسك كريم رسغها ونظر إلى عينيها ورأى... رأى ما يكره أن يراه بينها وبين حازم ذلك، رأى كل التفاصيل التي تمكنه التأكد من أنها كانت فتاة بكرًا وقت زواجها بحازم، تفاصيل حقيرة اشمأزمنها، التفاصيل نفسها تكررت مع طلال وهبة تتقمص ألم أول مرة وكأنها لم تمر بتلك التجربة مع حازم قبل طلال، مسكت هبة كفه وسحبت ذراعها لتتملص من مسكه لكي لا يرى تفاصيل أكثر من ذلك، كانت غارقة في دموعها تترجاه صامتة، كان طلال ناظرًا إليهما مبتسمًا متابعًا نظراتهما بعضهما إلى بعض وهو مدرج في ألم إصابته ثم قال متهكمًا:

- كلنا وسخين يا هبة وانت ما تقليش وساخة عننا، الناس الوسخة ربنا بيبتليهم بناس زينا كده من نفس طينتهم.

كريم ما زال مصدومًا ناظرًا إلى هبة، تدور الأفكار في رأسه... تزوجت عرفي ثم تركته وبعد ذلك رقعت نفسها ثم تزوجت طلال لتخدعه سنين، تاريخ ظاهره شريف ولكن الصدفة أفرجت عن قذارة خفية صدمته وجعلته يقول:

- أنا لما قولت "شكلك هتسمعي حاجات أغرب من أي خيال ممكن نعرفه النهارده" ما كنتش أعرف اني ممكن أسمع معاكي حاجات تفوق خيالي انا كمان!

قاطع كلامها رافضًا سماعه الآن وأخرج مسدسه الذي كان يضعه في جيب سرواله الخلفي، وصوبه جهة طلال، وكانت يده ترتعش من هول الموقف الذي بدأ توتره يحويه هو الآخر قائلًا:

- خلينا نخلص اللي احنا جايين عشانه، ها يا عم طلال كمل، طلقت هبة ليه بمنتهى السهولة أول ما طلبت منك؟

رد طلال وهو ينظر إلى المسدس المرتعش في يد كريم:

- ما كنش فيه أي حاجة ما بينا تخلينا نكمل، هي كانت طلبت الطلاق كذا مرة وانا كنت بحاول اضحك على نفسي واقول ان حياتنا عادية، بس آخر مرة طلبت الطلاق ما كنتش قادر أستحمل فطلقتها على طول من غير تفكير.

أنزل كريم مسدسه وأرجعه مكانه في سرواله، ثم قال لصادق بصوت هادئ على غير سخونة الموقف:

- انت اللي بعت ناس لأمي؟

كان صادق يراقب ما حدث لطلال منذ البداية من ضرب وغرس السكين في فخذه بالإضافة لما حدث له هو شخصيًا وأيقن أن كريم لن يتردد في فعل أي شيء ليجبره على الكلام، فرد في خوف:

- انا ما بعتش حد ولا بعمل حاجة، ده طلال هو اللي كان بيعمل كل حاجة.

نقل كريم وهبة نظريهما إلى طلال الذي بصق دماء أنفه التي يبتلعها على وجهه صادق، فقال كريم لطلال:

- كنت بتعمل كده ليه يا طلال، ومن نفسك واللا حد مسلطك؟

كان طلال تاركًا رأسه متدليًا من إنهاكه ولكنه هزه نفيًا يائسًا قائلًا:

- أنا ما بعتش حد لأمك ومعرفش حاجة عن موضوع امك ده، أكتر من كده مش هقدر أتكلم.

مسك كريم مقبض السكين المغروس في فخذ طلال، وأداره ببطء شديد ليقطع لحوم فخذه! مرت كل ثانية على طلال الذي ملأ الشقة صريخًا كأنها سنين، يدير كريم السكين وطلال يصرخ أكثر، ثم نزعه من فخذه وغرسه مرة ثانية في المكان نفسه، فقال وهو يصرخ، حتى بح صوته:

- كفاية !!!!!

وضعت هبة يدها على كتف كريم متوددة بعد أن علم كريم ما علم، وقالت:

- خلاص يا كريم.

أزاح كريم يدها بتجاهل دون أن ينظر إليها قائلًا لطلال:

- مين اللي وراك يا طلال ومين اللي بعت ناس تضرب أمي ومين اللي مسلطك على هبة السنين دي كلها؟

كانت عينا طلال قد تورمتا من الألم، لتصنعا بريقًا شديد التوهج، مع الدماء المتجلطة على وجهه، فقال:

- أنا والله معرفش حاجة عن موضوع امك ده، لكن بخصوص هبة السنين دي كلها كان... حازم الطهطاوي.

عندما تكون نفسك أول من تخدع.

(١٣)

أزاحت هبة كريم من أمامها، لتنظر إلى طلال، وتسأله بمنتهى الاندهاش:

- حازم الطهطاوي هو اللي بيخليك تعمل فيا كده يا طلال!

- آه.

- وايه على علاقة حازم الطهطاوي بصادق؟

- اسأليه.

نظرت إلى صادق الذي ارتسمت علامات الرعب على وجهه وسألته:

- ايه علاقتك بحازم؟

رد صادق:

- أنا وحازم بيه أصحاب من زمان، انتي نسيتي ان هو اللي معرفك عليا من الأول.

قاطع كريم الحديث موجهًا كلامه إلى هبة:

- يعني انتي كنتي عارفة من الأول ان صادق يعرف حازم الطهطاوي بتاعك ده؟

- أيوه هو كان عرفني عليه لما كنا متجوزين عرفي، ولما طلقني ما كنتش اعرف حد غيره سمسار ممكن يأجرلي شاليه الساحل.

نظر إليها كريم نظرة تساؤل – كيف تكونين بهذا الغباء – ثم قال بغضب:

- انتي ازاي عايشة كل السنين دي، واثقة في واحد من طرف حد كان ضاحك عليكي ومتجوزك عرفي.

- كريم انا واحدة حياتي كانت عادية جدا حبيت واحد ضحك عليا واتجوزني عرفي، وخبرتي في الحياة صفر ما تخلنيش اشك في اي حد وحازم لما طلقني ما كنش باين عليه أي نية للغدر بيا بأي طريقة.

انهارت هبة على أقرب مقعد لها وهي تمسك شعرها غير مصدقة ما عرفته اليوم، وكانت إجابة سؤال كريم جلية لقد وثقت في من لا يستحق، تركها كريم تتعايش مع صدماتها وقال لطلال وصادق:

- وانتو كنتوا بتساعدوا حازم ده ليه؟

لم يرد أحدهما؛ فتابع:

- عامة هي مش محتاجة ذكاء، أكيد ماسك عليكو حاجات، بس حازم ده لازم يجيلي هنا النهارده.

نظر صادق وطلال بعضهما إلى بعض ثم صمتا، فتابع كريم بغضب:

- وانتو اللي هتجهولي هنا، وهتتصرفوا، يلا فكروا وأبدعوا.

لم يتلق أي إجابة منهما فنهض من مكانه بعد أن جلس قليلًا ليستريح، ومن فخذ طلال نزع السكين بعنف فصرخ منه طويلًا، ثم قال لهم:

- أنا عارف ان التعذيب المكرر ده بيخلي الواحد يتعود على ألمه، عشان كده كان فيه دايما إبداع في التعذيب على مدار التاريخ، وانا قررت اجدد من التعذيب اللي عملته معاكو.

وبمقبض السكين، غرس بداية نصله في فخذ صادق، ثم ترك السكين والتقط اللوح الخشبي ورفعه إلى أعلى ليهوي به على السكين كأنه يدق مسمارًا لينغرس في فخذه بكل قوة، جعل صادق يطلق صرخة طويلة حتى بح صوته فلم

يعد يخرج صوت صريخ ثم فقد وعيه من الألم، نظر طلال إلى صادق المسكين المغشي عليه، وتخيل أن يحدث فيه المثل فقال مسرعًا:

- خلاص خلاص انا هتصرف، بس كفاية اللي بتعمله ده!

تنفس كريم الصعداء شاعرًا براحة من داخله لأنه لن يقوم بأي تعذيب آخر الآن، فهذه أشياء تُمزق داخله إن فعلها.

****

مر الوقت والسكون مسيطر على المكان، الأربعة جالسون أماكنهم، كريم يتحاشى نظرات هبة التي تحمل معنى الأسف، وطلال وصادق هادئان يجمعان شتات أنفسهما ويستجمعان جأشهما قليلًا، ثم نهض كريم قائلًا لهما:

- ها فكرتوا هتعملوا إيه؟

هز طلال رأسه إيجابًا وقال:

- اتصل بحازم من موبايلي وانا هكلمه أخليه يجي.

- ازاي؟

- ما لكش دعوة، مش ليك انه يجيلك لغاية عندك؟

- تمام.

قالها كريم وأخرج هاتف طلال من جيب سرواله، فأخرج رقم حازم، ثم أشار إلى هبة أن تأتي فأعطاها المحمول تتصل بحازم وتفتح مكبر الصوت وتقربه من فم طلال، ثم أخرج كريم مسدسه وصوبه إلى فخذ طلال مكان غرس السكين وقال بقوة:

- لو حسيت انك بتقوله اي حاجة فيها أي تلميحات لأي حاجة غير انه يجي، ساعتها مش هبقى على حاجة، وهضرب فيك رصاص بشكل عشوائي لأني مش هقدر أنشن على دماغك أو قلبك لأني مش بعرف أنشن، بس صدقني هعملك عاهات ممكن تقعدك في بيتك بقية حياتك ما تتحركش من كرسيك وبرضو الله أعلم رصاصة طايشة في اي مكان ممكن تموتك، مين عالم.

أنهى كريم كلامه، ففتح حازم الخط قائلًا:

- إيه يا طلال في ايه، بتكلمني ليه دلوقتي، بتكلمني ليه اصلا مش قولتلك قبل كده لو عوزت حاجة كلم صادق ما تكلمنيش.

- حازم احنا ضعنا وما فيش غيرك يلحقنا.

- إيه ده انت صوتك عامل كده ليه!

- مناخيري مكسورة وشفايفي ورمة من كتر الضرب يا حازم.

- طب انا هبعتلك حد يشوف في ايه، دي حادثة واللا ايه! انت فين؟

- ما تبعتش حد، بقولك أنا وصادق مع بعض وغرقانين في دمنا.

- صادق معاك وغرقانين في دمكو! انتوا فين ومين عمل فيكو كده!

- هبة.

- هبة مين!

- هبة الزمرد يا حازم هيكون هبة مين!

- وعايزة منكو ايه، هي عرفت حاجة؟

- عرفت عني حاجات من صادق، بس هي مش مقتنعة اننا بس اللي عاملين فيها كل ده.

- ازاي يا سيادة الظابط يا محترم واحدة ست تعمل فيكو كده، انتو رجالة انتو!

- اللي حصل يا حازم، تعالا والحقنا لأن صادق نخ وقالي انه هيقولها على كل حاجة لو ما جتش.

- آجي فين انت اتجننت، أنا من امتى بروح لأي حد أي حتة! وبعدين خليه يقول ما تفرقش معايا، تبقى تثبت بقى ان ليا علاقة بيكو.

- صادق كان بيصور كل حاجة بتتم بينكو صوت وصورة وقاللي هيطلع كل حاجة للنيابة لأن أكيد هبة هتبلغ عنك بعد اعترفاتنا دي وهو مش هيعوز يتلط لوحده.

نقلت هبة المحمول بجوارفم صادق فقال:

- تعالا يا حازم باشا أحسنلك وحاول تخلصنا من الورطة دي، انا مش قادر استحمل اللي بتعمله فيا، دي خرمت فخادي بالسكاكين.

- يابن الكلب يا صادق، التسجيلات دي تبلها وتشرب ميتها ما دام ما فيش إذن نيابة.

تدخل طلال في الحديث:

- انت بتتكلم صح يا حازم، ما لهاش لازمة من غير اذن نيابة، بس اكيد مش هتفضل في مكانك اللي بتتحامى فيه عشان سمعتك هتكون اتوسخت خلاص، وساعتها انا كمان هاخد حق السنين اللي خلتني اعمل فيها حاجات ما كنتش عايز اعملها ولا حتى قبضت تمنها.

- لأ قبضت تمنها حمايتك عن التجاوزات اللي عملتها ولسه بتعملها يا روح امك.

- مش هرغي معاك يا حازم، قدامك نص ساعة تيجي تلحقنا وتتصرف مع هبة ان شاء الله حتى تقتلها، يا كده يا صادق مع اول قلم هيطلع كل تسجيلاتكو مع بعض، وانا هطلع منها لأني مش معاكو في التسجيلات دي وهتلبسها لوحدك.

صمت الجميع لدقائق ثم أردف حازم:

- طب خلاص هبعتلكو حد يشوف الموضوع ده.

انفعل طلال بقوة قائلًا:

- ما تبعتش حد يا حازم تعالى بنفسك وإلا مش هبقى على حاجة وتسجيلات صادق هتوديك في داهية.

صمت حازم لدقائق ثم سأل:

- هي سايبلكو التليفون؟

- اه مديانا مهلة نشوف هنعمل ايه وسايبلنا الموبايل نكلمك.

- معاها الواد صاحبها ولا جوزها ده؟

نظر طلال إلى كريم، فهز كريم رأسه نفيًا، فقال طلال منفذًا:

- واد مين! هبة لوحدها.

- كويس، انتو فين؟

- في شقة في المعادي.

. فين في المعادي؟

- معرفش، هي قالت انك هتعرف الشقة لما نقولك في المعادي.

- ماشي عرفتها، سلام.

أغلقت هبة الخط، ثم أغلقت المحمول نفسه وقذفته بعيدًا، أنزل كريم المسدس الذي كان يصوبه ناحيته، وقال لطلال:

- انا شايفك كنت مبتكر قوي، كل ده عشان خايف مننا؟

رد طلال بصوته الذي أصبح غريبًا بعد كسر أنفه:

- لأ طبعا، بس حازم الطهطاوي زي ما كان مخلي حياة هبة كلها خوف وجبن وهمها كله انها تستخبى، كان مخلي كل حياتي ذل ومهانة وكسرة نفس... على فكرة يا هبة، حازم لما رشحك ليا عشان اتجوزك انتي فعلا عجبتيني جدا واتجوزتك علشان كده، بس بعد ما اتجوزتك، فاجأني بابتزازه، عشان كده كنت عايش معاكي وحاسس اني خاينك.

لم تكن هبة مصدقة ما يدور خلف حياتها، لقد كانت تشاهد خشبة مسرحها كأي متفرج خارج حياتها ولا تعلم شيئًا تمامًا عن كواليسها والأدهى أنه اتضح أن كومبارس حياتها هم الأبطال، و لم ترقَ هي لتكون كومبارس إنما "عروسة ماريونت".

****

وضع حازم سيارته بعيدًا تمامًا عن منزل هبة الذي يعلم مكانه جيدًا، كان متأنقًا كعادته مرتديًا حلته الأنيقة، سار مسافة كبيرة ليصل إلى منزل هبة وفي أثناء سيره تداخلت في رأسه أفكار عدة... كان يقول لنفسه إنه قادر على التغلب على هبة وإخضاعها له سواء بالقوة أو بالسياسة، وفكرة أخرى تصارع السابقة، إن لكل شر نهاية وهو يعلم أنه فعل فيها الكثير وحان وقت دفع الثمن.

وصل حازم العمارة وهو يراقب الأجواء من حوله، كانت منطقة هادئة في المعادي مظلمة، لم يستقل المصعد احتياطيًا وصعد على الدرج بهدوء حتى وصل إلى الشقة، الباب كان مفتوحًا على مصراعيه، مد رقبته ينظر في الداخل فلم يجد

شيئًا مريبًا، ثم دخل بجسده كله يتفحص المكان بعينه ثم أُغلق الباب بعد دخوله، وفجأة شعر بمسدس يحك رأسه من الخلف وصوت هبة قائلة:

- لسه زي ما انت يا حازم محافظ على نفسك.

رفع حازم يده إلى أعلى كأي شخص يستسلم لتصويب مسدس، وعكس كل ما توقعه كريم وهبة، بالرغم قرب حازم من الخمسين عامًا، إلا أنه بالتفاتة سريعة ضرب المسدس بيد هبة ليقذفه بعيدًا، ثم جذبها من شعرها بقوة وهي تصرخ بصوت عالٍ، خرج كريم من مكمنه بعد أن ضرب حازم خطتهم في مقتل ملتقطًا المسدس الذي قذفه وصوبه إلى حازم قائلًا:

- سيبها، بقولك سيبها.

تركها حازم فأسرعت بالوقوف بجوار كريم، فأشار كريم إليه قائلًا:

- روح اقعد جنب اخواتك.

تحرك حازم ببطء ذاهبًا للجلوس على المقعد الثالث بجوار صادق وطلال، وفي أثناء جلوسه قال لهبة:

- هو ده العيل اللي انتي متحامية فيه!

ردت هبة:

- العيل ده اللي مقعدكو زي الفراخ انت وصبيانك، مش دول صبيانك برضو وكلابك اللي كنت مسيبهم عليا وفاكر انهم هيحموك طول حياتك.

ومازال حازم يملك ما يكفي من كبريائه، وتبادل النظرات مع صادق وطلال ثم ضحك بصوت عالٍ عاقدًا رجليه قائلًا:

- حلوة كلابك دي، عجبتني! فاكرها يا طلال! عايزة ايه يا هبة، جايباني هنا ليه، مش عرفتي كل حاجة منهم خلاص؟

لم ترد، ثم ناولها المسدس لتصوبه ناحية حازم وقام بتربيطه في الكرسي، لم يضيع حازم وقتًا؛ فبمجرد أن اقترب منه كريم ليربطه دفعه بقوة فرجع كريم إلى الخلف مرتطمًا بهبة ليسقطا معًا أرضًا، نهض حازم من مجلسه والتقط المسدس الذي سقط من كريم، وبكعبه ضرب كريم في عينيه لتتورما على الفور ثم فعل الشيء نفسه مع هبة لتتورم عينيها هي الأخرى وتذرف دمًا، كبل حازم حركة كريم العنيفة في محاولاته للفكاك، فاستغلت هبة هذا الصراع الدائر بينهما وبدون تفكير أمسكت زهرية زجاجية ثقيلة وبقوة هوت بها على رأس حازم ليسقط فاقدًا الوعي، لم يضيع كريم وقتًا؛ أزاح حازم الذي كان جاثمًا فوق صدره، وبعيون دامية جره من تحت إبطيه ليجلسه على الكرسي ويربطه سريعًا كصادق وطلال.

أخذ كريم يتفحص جرح عينه التي تورمت، ثم تفحص عين هبة هي الأخرى التي تورمت للغاية حتى كادت تغلق تمامًا.

****

لم يفعل كريم مع حازم المثل قاذفًا وجهه بالماء، بل فضل تركه يفيق وحده، لينال هو وهبة قسطًا من الراحة ويهدأ روعهما حيث يظن في كل خطوة أن الأمور ستسير بشكل أيسر من ذلك بكثير، ولكن الأمور تتعقد أكثر، وقد بذل كثيرًا من الجهد البدني، نهض ليدخل المطبخ فسألته هبة:

- رايح فين؟

- هشرب.

جلست هبة وحيدة تنظر إلى الثلاثة المقيدين، كانت تجلس أمام حياتها كلها ماضيها البعيد طلال وماضيها الأبعد حازم وصادق الشخص الوحيد الذي كانت تتعامل معه وأيضا آتٍ من الماضي، كان ماضيها ملتصقًا بها في كل لحظة وهي لا

تعلم، تتحرك وتنتقل من شقة إلى شقة لسنين هروبًا من خوف صنعه لها ماضيها، كانت تظن أن حاضرها هو المؤلم ولكنها لم تعش الحاضر ولا لحظة، لقد كانت كل ذلك تعيش التاريخ فقط.

تأوه حازم بداية إفاقته؛ ثم هز رأسه وفتح عينه بصعوبة، في الوقت نفسه كان كريم قد رجع من المطبخ، فوقف أمام حازم منتظرًا كلامه، أدرك حازم ما ألم به من ربط يديه ورجليه ثم تفحص الموقف من حوله، صادق المغشي عليه متأثر بألمه وكذلك طلال، وأمامه تجلس هبة تحدق فيه، في حين يقف كريم أمامه متحفزًا، سبقه الأخير بالكلام قائلًا:

- تحب تتكلم على طول وتقولنا القصة من الأول، واللا تحب أعمل معاك زيهم؟

نظر حازم إلى صادق وطلال مرة أخرى متفحصًا جروحهم، ثم ابتسم في سخرية وقال لكريم بثقة:

- انت شكلك ما تعرفش عني كل حاجة، على فكرة انت ولا تعرف تعملي أي حاجة وممكن أوديك في داهية بإشارة مني، هو انت فاكر اللي انت عامله فيهم ده ممكن يخوفني، بس انا هجاوب على كل أسئلتكو عشان اشوف وشك يا هبة وانت بتعرفي كنتي بتجري من ايه طول حياتك وبتستخبي ليه، ده مش سر انا مخبيه وهكشفهولك، لأ، انا هدوق طعم نجاحي.

كان أسلوب حازم مستفزًا وغير متوقع بالمرة، فسأله كريم:

- كنت بتعمل فيها كده ليه؟

- هبة هي اللي غبية، كان ممكن ما تخلنيش اعمل اللي عملته فيها السنين دي كلها، بس هي اللي ما رضيتش، كنا متجوزين عرفي وبتحبني وكله تمام، ما تفهمش

ليه اول ما جبت سيرة أملاكها وثروتها اللي ابوها كان سيبهالها، اتجننت وحلفت لتقطع الورقة اللي بينا، خفت تتهبل وتشوشر عليا فعملتلها اللي هيا عايزاه وطلقتها، ما كنتش تعرف ان اللي انا مخدتوش برضاها هخده من وراها ولو عصلجت قوي يبقى هخدها غصب عنها...

نظر كريم إلى هبة وكأنه يستفسر عما يسمعه، فنهضت هبة من مكانها وقالت:

- بعد جوازنا كنت محسسني طول الوقت انك داخل على طمع، ومش عايز مني غير فلوسي فأول ما بدأت تطلب فلوس بشكل صريح وتفتح موضوع اني ابيع حاجات، كان لازم ابعدك عني.

- عشان كده بقولك غبية، كنتي اديلي اللي انا عايزه بمزاجك، بس آديني أخدته بالعافية.

عقدت هبة حاجبيها وقالت بحذر:

- بس انت ما خدتش مني حاجة، أنا حاجتي كلها معايا زي ما هي.

حدق بها حازم للحظة وتصنع كتمه ضحكةً ثم ضحك بصوت مرتفع مفتعل...

ثم هدأ فقال:

- هبة انتي الجنة اللي بابها كان مفتوحلي، انت كنتي زي حتة الأرض اللي بتجيب ريع كل سنة وأحطه في البنك وبيزيد، من غير أي مجهود.

باستهجان قالت هبة:

- يعني ايه!

- لما عرفتك على صادق واحنا متجوزين كنت ناوي أخليه يقنعك تبيعي شاليه الساحل، وأديله عشرة في المية، بس انتي كنتي مصرة على الطلاق، بس

سبحان الله "عسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم" طلاقي ليكي ده كان أحسن بكتير من انك تفضلي على ذمتي، كل تأجير صادق اجره لشاليه الساحل كنت باخد اكتر من تمانين في المية منه، وصلت لدرجة ان شاليه الساحل ده يتأجر في تلات شهور الصيف مية واللا مية وعشرين ألف، كنا بنديكي عشرين وباخد الباقي، غير لما صادق اقنعك نبيعه وتجيبي واحد جديد في هسيايندا، بعناه بمليون ونص، فاكرة أخدتي كام، بصراحة ما كناش طماعين، ادناكي خمسمية واخدت انا المليون.

أنهى حازم جملته وضحك بقوة، فاقتربت منه هبة وقد بدأت تختلط وتتأجج بداخلها مشاعر كثيرة، سألته:

- بس أنا كنت ماضية على خمسمية بس.

- لأ ما احنا زودنا واحد بعد كده والبايع ماضي على مليون وخمسمية، واشتريتي شاليه هاسيندا ب اتنين مليون، وقسطتي المليون ونص من إيجار الشاليه اللي زاد وفوائد ودايع البنك اللي ابوكي سيهالك، وكان لسه التعامل الإلكتروني ما ابتداش فعرفنا نغير في الأوراق والحمد الله برضو انك مش عاملة توكيل للمحامي بتاعك في البيع والشراء وإلا كنتي عرفتي كل حاجة، عارفة إيجار تلات شهور الصيف في هاسيندا كان بيوصل لربعمية ألف كنا بنديكي خمسين ألف بس وانا باخد الباقي وانتي كنتي فرحانة بالإيجار اللي اتضاعف، هبلة زي عادتك وبترضي بقليلك، مش بقولك كنتي جنة فاتحة بابها، متخيلة!

كانت هبة قد اقتربت منه للغاية وهي تسأله:

- وايه علاقة طلال بالموضوع ده؟

- الخوف يا هبة، طلال كان الضلع التاني، المثلث ده تاريخي، ضلع نصاب وفاسد يسرقك وينصب عليكي ويوهمك انه بيعملك حاجات تنفعك وتأمن

مستقبلك، وضلع الخوف يشتتك من كل الاتجاهات وده طلال، فيخليكي ما تخديش بالك من اللي عمال ينصب عليكي ويسرقك طول الوقت، وسنين الخوف تجيب جهل عن العالم حواليكي، فتسهل مهمته أكتر في السيطرة عليكي بإقناعك بأي حاجة، وأنا... أنا أهم حاجة، أنا اللي بدبر وأفكر وأنظم، أنا صاحب المصلحة الأكبر من الاتنين اللي بيخدوا نسبة بسيطة...

قاطع كريم كلامه سائلًا:

- انت بتشتغل ايه؟

نظر حازم إلى كريم وابتسم في استهزاء دون أن يجيب ثم نظر إلى طلال الذي رد بإعياء ببطء:

- أحسنلك ما تعرفش.

- ومدام انت واصل قوي كده، طب ليه ما بيعتش هبة كل أملاكها دي واستفدت بيها بمعرفتك بدل ما تبذل كل المجهود ده.

نظر حازم إلى كريم بمنتهى السخرية قائلًا:

- ذكي الولد ده يا هبة جبتيه منين؟

تدخل طلال مرة ثانية:

- ما ينفعش اسمه يجي في أي مستند، ده أولا، وثانيا البيع بالإكراه كان سهل إثباته بالطب الشرعي أو بالمبلغ المدفوع اللي مش هيكون له وجود وأي محامي صغير يرجعلها حاجتها تاني وساعتها هيتلط.

سخر حازم مرة ثانية:

. ما قولتليش يا هبة جبتي الولد ده منين!

ردت هبة:

- كريم قدري اللي ربنا كان شايلهولي وطلع في الوقت المناسب، القدر غفلك برضو خلاك تركز في حته وبعتلك حد زي كريم من حتة تانية.

قال كريم:

- عشان كده ما كنتش بتقرب، كله من بعيد لبعيد.

تابع حازم:

- بس لازم تشكريه، ده لولاه كنت هتعيشي وتموتي وانتي اقصى طموحاتك انك تعيشي في الأمان، الأمان اللي كنتي بتدوري عليه ومش لقياه، حتى الأكل والشرب ما كنوش فارقين معاكي.

ارتفع ضغط هبة وهي تسأله:

- يعني انت كنت مخطط لكل ده من البداية!

باستهتاررد حازم:

- طبعا لأ، أنا لما اتجوزتك عرفي كنت عايز أطلع منك بأي مصلحة، بس ما عرفتش، لكن القدر كان دايمًا في صفي، بعد ما طلقتك بكام شهر طلال كان بيدور على عروسة وانتي من ساعة ما ابوكي وامك ما ماتوا وانت عايزة تداري في أي راجل وخلاص، فلما رشحتك لطلال عجبتيه وانتي قولتي قشطة ظابط زي حازم يحميكي وقت اللزوم، وانا عملت معاكي واجب حلو وما قولتلوش اننا كنا متجوزين، وانتي أبدعتي الباقي من عندك ورقعتي وسلفنتي نفسك، شوفتي ازاي انا عملت معاكي واجب، بعد ما اتجوزتوا بدأت أطلب منه يجرجر أي حاجة من ثروتك بس المغفل ما عرفش، وقال إيه ضميره كان مانعه! اللي طول عمره مقضيها رشاوي واستغلال نفوذ، ما قدرش يفضل متجوزك ولا حتى يمثل انه بيحبك، غبي...

عجزت هبة عن التماسك وهي تسمع ذلك الكلام، فرشحت عيناها دموعًا قائلة:

- كمل!

أدرك كريم خطورة ذلك الكلام عليها، حتى هو لم يتخيل ربع ما قاله حازم فأمسك ذراعها قائلًا:

- كفاية كده يا هبة، احنا عرفنا اللي احنا عايزينه.

نزعت ذراعها بعنف وصرخت في حازم:

- بقولك كـــمل!

رجع حازم إلى الخلف مصطنعًا الخوف قائلًا:

- ما انا هكمل، بس براحة على نفسك! الغبي طلقك من غير ما يرجعلي، فكان لازم ادي نفسي فرصة أفكر هعمل ايه معاكي لأني ما أضمنش هتعملي ايه وهتتصرفي ازاي! وانتي كنز لا يمكن أسيبه.

- فعملت ايه؟

وبلهجة مليئة بالتحدي رد:

. انا اللي خبطك يوم طلال ما طلقك يا هبة، كلمني بعد ما طلقك على طول خلاني أنزل على ملا وشي وبنفسي والله، بس طبعا مستحيل تفتكري ان انا اللي كنت سايق لأنك ما كنتيش في وعيك في اليوم ده خالص.

لفت هبة ياقة قميص حازم حول أصابع يدها وهي تسأله:

- وانت كمان اللي خبطني في مدينة نصر لما حوضي اتكسر!

- هو حوضك اتكسر ساعتها! عشان كده غبتي في شقتك شهرين وما كنتش عارف انتي عايشة واللا ميتة؛ أنا آسف، كنت عرفت ساعتها انك بتحضري للسفر

بره مصر وطلال ما كنش بيرضى يعمل الحاجات التقيلة دي، كان بس ممكن يمشي حد وراكي، يبعتلك حد شقتك يخبط عليكي يخوفك، حد يراقبك بعربيته فتخدي بالك... الحاجات اللي تخوف متأذيش دي، بس حادثة مدينة نصر دي هي اللي خلتك تقتنعي انك مش هتعرفي تفلتي مني أبدا ومن ساعتها وانتي ما بتفكريش غير في الهرب وبس.

تفجر كل شيء داخل هبة وهي تنظر إلى حازم في عينه، تفجر كل ألم السنين والخوف، مرت حياتها كلها أمام عينيها، شاهدت كل لحظة ذل وإهانة شعرت بها أمام نفسها، كانت تتقاسم ذلك الألم بين روحها وبين نفسها، كم مرة ركضت مختبئة في الشوارع والأزقة، كم مرة تمنت أن ينقذها أحد ما ولم يحدث، كم صرخة كتمتها لكي لا يعلم مكانها أحد، بكاؤها ليلًا في غرفتها المظلمة تربت على نفسها كأن شخصًا آخر يطمئن خوفها، كم أمنية خرقاء تمنتها ولم تتحقق، كم من دعوة مكتومة صرخت بها لله في جوفها أن يعيد لها أباها وأمها لينقذاها مما تعيشه؛ فقد بلغ الألم أقصاه وملأ روحها، حتى وصل إلى حلقها وآن له أن يخرج وألا تستسلم له مختنقة، نظرت إلى كريم وعيناها قد غطتهما الدموع، بادلها نظرة عطف بالرغم من غضبه منها وهو ماسك يدها وقال بصوت خافت:

- الوقت ده أهم وقت في حياتك، لازم تخدي حقك دلوقتي.

ضحك حازم بصوت مرتفع وقال:

- هتفضلي طول عمرك يا هبة...

ترك كريم ذراع هبة وكأنه فك رباط ثور هائج ورجع إلى الخلف خطوتين؛ فلم تمهل هبة حازم وقتًا لإكمال جملته، التفتت إليه وبملء عمرها غلًا، انقضت بأسنانها على أذنه وكأنها مصاصة دماء، لتنزع منها جزءًا كبيرًا وتبصقها في وجهه،

ولكن حازم كان قوي الشكيمة بالفعل، فلم يصرخ رغم الألم الذي بسببه برزت عروقه واحمر وجهه، لم تشعر هبة بانتشاء النصر لعدم إبرازه وجعه، وعلى حذو كريم نزعت السكين من فخذ صادق الذي فاق من إغمائه بعنف بسبب نزعة السكين المفاجئة، وغرستها بقوة في فخذ حازم، الذي نظر إليها بتحدٍ دون أي صوت، مما جعلها تلتقط لوح السرير الخشبي وبقوة سنين تحمل أطنان خوف وهرب، هوت به على وجهه من الأمام فانقسم اللوح الخشبي نصفين وكُسر أنف حازم الذي بصق دمًا غزيرًا وسقط أرضًا بالمقعد المربوط فيه، جلست فوقه ولكمته في أنفه المكسور بيمينها ثم يسارها وتوالت لكماتها بقوة وكأنها بكل لكمة تقتل إحساس خوف اغتصبها!

كان الخوف الذي يملؤها ينزف من لكماتها المتوالية وعندما وجدته لم يصرخ بعد كل ذلك، نزعت السكين مرة أخرى من فخذه، ورفعته إلى أعلى لتهوي به، ولكن كف كريم أوقفها وقال لها:

- خلاص يا هبة كده كفاية قوي، صدقيني!

- لازم يصرخ زي النسواان يا كريم، لازم!

بهدوء نزع كريم السكين من يدها، وقال:

- خلاص يا هبة، صدقيني خلاص.

تركت هبة السكين، وكريم ينظر إليها أن تهدأ ولا تخف، عدل كريم مقعد حازم ثم سأله:

- انت اللي بعت ناس لأمي؟

نظر إليه حازم في إعياء شديد وابتسم ولم يجب، ففهم كريم أنه هو المعني فقال له:

- هتندم ندم حياتك، إنك دخلت امي في الموضوع ده.

ثم بالسكين فك وثاق يديه وقدميه وكذلك طلال، لينهض بضعف بنظرات تساؤل، ثم فعل المثل بصادق، ثم تركهما ووقف بجوار هبة التي نظرت إليه مذهولة مما فعل، بادلها كريم النظرات قائلًا بصوت خافت تسمعه هي فقط:

- دي آخر حاجة.

لم يمهلهما حازم وقتًا وانقض على كريم بلكمة في أنفه، ثم صفعها صادق بمنتهى القوة لتسقط أرضًا صارخة "عملت ايه يا كريم!" كان كلٌّ من صادق وحازم يريدان الثأر لكرامتهما؛ فلكم صادق بقبضته اليمنى هبة في بطنها وعندما التوت تتألم رفعها بلكمة في أنفها، ثم باليسرى ضربها في عينها، أما حازم فقد خطف السكين من كف كريم ليغرسه في فخذه ولكنه تعجب من ابتسامة كريم الواثقة، وكأن شيئًا لم يحدث، مما استفزه أكثر فهوى بقبضته على فمه لتنقسم شفته العليا، هبة وكريم ملقيان بجوار بعضهما أرضًا وحازم وصادق فوقهما حدثت لهما لوثة فأخذا يتبادلان ضرب كريم وهبة دون هوادة أو تهاون.

طلال واهن ينظر إلى حازم وصادق القاعدين على جسد كريم وهبة وهما يكيلان لهما اللكمات المتتالية... وكانت قطرات دماء كريم وهبة قد أغرقت الأرض وملابسهما، لم يرد طلال أن يشارك رغم ما ناله من ضرب، ولكنه ما كان يريد أن يتسبب في كل ذلك من البداية، فاكتفى بالسلب يشاهد فقط.

حدقت هبة في كريم الراقد بجوارها بعينها السليمة الوحيدة متسائلة عن سر ما فعله، فقرأت شفتيه الداميتين تقولان لها "ما تقلقيش"، ثم شعر كريم أنه قد حان وقت الدفاع عن نفسه وهبة تحت وطء الضرب المتوالي، فأخرج المسدس من خلف ظهره، ولكن حازم اغتنم الفرصة وخطفه من يده وصوبه إلى دماغ كريم، فنهض صادق من فوق هبة –التي كانت بين الحياة والموت- قائلًا:

- حازم بيه، ما تضيعناش.

حازم ينهج بقوة وشعره الذي غلبه البياض مبعثر على جبهته والدم سائل من وجهه المتورم من ضرب هبة المبرح وما زال مصوبًا المسدس صوب كريم...

فجأة كُسر باب الشقة بقوة ليقتحم ضابط شرطة قسم المعادي الذي تركت له العنوان منذ ساعات وتوقف مذهولًا من هول الموقف الذي رآه، تجمد الضابط لوهلة ثم أشار إلى حازم لينهض من فوق هبة وصاح " قوم" مصوبًا إليه مسدسه فنهض حازم من فوق هبة مستسلمًا... كان يرافق الضابط عسكريان قيدا يدي طلال وصادق ومن خلفهما دخل محمد حجاج يبحث عنهما ليجد هبة وكريم أرضًا غارقين في دمائهما بلا حراك، أخذ يهز هبة حتى تأكد أنها حية وكريم لم ينطق فهزه هو الآخر بعنف أكبر حتى فتح كريم عينه اليسرى ناظرًا إلى محمد وقال بوهن شديد:

- اتأخرت كده ليه يا حجاج، انا باعتلك من بدري!

في الطرف الآخر نظر حازم إلى الضابط وقال له:

- ما تتسرعش، انت ما تعرفش أنا مين.

أشار إليه الضابط بالمسدس ورد:

- كده كده هتتلط، انت متهجم على واحدة في شقتها.

(١٤)

شقشق الفجر، وسطوع الشمس بدا، صاحبًا معه تلك النسائم الصباحية المميزة التي يتسابق إليها الناس قبل أي عادم، ومن باب قسم شرطة المعادي خرجت هبة ووجهها متورم ملطخ بالدماء المتجلطة ومن خلفها كريم الذي لا يفرق وجهه عنها شيئًا، وقفت هبة تنظر إلى السماء الصفراء من أعلاها وزرقاء من أسفلها، تنهدت تنهيدة حارة تخرج ما بها من بواقي خوف وألم وصبر ثلاث عشرة سنة ثم ابتسمت ابتسامة واسعة فقد كانت الطبيعة المحيطة بها قد تجمعت لترسل إليها رسالة واحدة "مع شروق شمس اليوم ستبدأ حياة جديدة، لقد تحررت إلى الأبد من خوفها، لا تشعر بأي ألم من جروح وجهها ولا كدمات جسدها، وقف كريم بجوارها يستنشق النسائم الصباحية معها هو الآخر ثم قال لها:

- بعد شقة المعادي الدور على إيه، شقة مدينة نصر!

نظرت إليه مبتسمة:

- خلاص بقى من النهارده، ما فيش ترتيب، أي شقة على مزاجي.

نظر بعضهما إلى بعض متفحصًا كلٌّ منهما وجه الآخر، وابتسمت هبة بصعوبة لما آل إليه حالهما، ثم قال كريم:

- أنا آسف ان وشك حصله كده، هو المفروض انا كنت عامل حسابي انك تتضربي شوبة بسيطة بس الحقيقة محمد اتأخر فا...

قاطعته هبة بهدوء:

- متتأسفش على حاجة يا كريم، انا اللي لازم اشكرك سنين قد السنين اللي أنا عشتها خايفة على مساعدتك ليا وانك خلصتني من الناس اللي كانوا مسيطرين على حياتي وأنا معرفش.

نظر إليها كريم في صمت مبتسمًا وشفته العلوية مشقوقة ومتورمة، فسألته هبة:

- هنعمل ايه في التحقيق بتاع بكرا؟

رد بهدوء وبعض مخارج الحروف غير واضحة:

- ركزي معايا عشان لازم كلامنا يكون زي بعض، المسدس بتاعي مترخص على محل الدهب بتاعي اللي انا وراثه من ابويا، والمحل اللي بيعملي صيانة المسدس جنبك في حلوان، صاحب المحل عارفني من زمان وانا كنت مكلمه وقايله اني جي اعمل الصيانة أول امبارح بالليل، طبعا هتقولي اني زورتك أول امبارح وانا رايح اعمل صيانة المسدس لأننا اصحاب وممكن ازورك ما فيش مشكلة، بس خلي بالك لازم تقولي اني زرتك اول امبارح مش امبارح عشان شعبان البواب بتاعك شافنا امبارح مع بعض، المهم انا اتأخرت عندك ورجعت بيتي بس نسيت المسدس عندك هنا في المعادي ولما افتكرت اني نسيت المسدس عندك كلمتك عشان اعدي عليك اخده بس انتي كنتي رجعتي شقة الكوربة، فجتلك بالليل بيت عندك ومشينا الصبح، روحنا عملنا كام مشوار ممكن نبقى نتفق عليهم مع بعض، وآخر اليوم روحنا شقة المعادي، بس فجأة وانا عندك صادق السمسار بتاعك وطلال هجموا علينا وكتفونا وقعدوا يضربونا، هنا انتي هتكملي لوحدك لأني معرفش اي حاجة عن موضوع التأجير وإني اضربت معاكي بس عشان كنت بحاول أدافع عنك فضربوني، لما يسألك الظابط ايه مصلحة صادق انه يعمل كل ده هتقوللهم انه عايز ياخد منك نسبة اكتر من النص في تأجير شاليه الساحل بعد ما كان بقاله سنين بيخنصر من وراكي تأجير الشاليه القديم بس انتي لما كشفتي الموضوع ده قولتيله انه مش هياخد غير خمسة في المية بس من الإيجار زيه زي أي سمسار، ودي

حاجة ضايقته جدا هو وجوزك القديم اللي اكتشفتي بالصدفة ان ليه مصلحة معاه عشان كان بينصص معاه الإيجار، كده هيلبسوا قضية نصب وسرقة بالإكراه، وأول ما القضية تلبسهم صح، صادق مش هيلاقي قدامه غير انه يقول على كل حاجة بينه وبين حازم من تزوير واختلاس وإكراه ونصب وكل حاجة عملوها فيكي، عشان ما يشلش كل حاجة لوحده وكمان على أمل ان حازم يعرف يطلعهم منها باتصالاته وعلاقاته وطلال هيأيد كلام صادق كمان انه كان معاهم في الليلة دي من الأول، فيلبس حازم أحلى لبسة.

حدقت به هبة منبهرة من كلامه وترتيبه، فسألته مذهولة:

- كريم انت كنت عارف من الأول إن في حد مراقبني؟

تنهد كريم ليلتقط أنفاسه ورد:

- من أول يوم جيت وراكي لشقة الكوربة شوفت حد مراقبك، ساعتها اتأكدت انك محتاجة مساعدة حقيقية.

- وما قولتليش ليه!

- كان لازم كل حاجة تمشي طبيعية، تصرفاتك وكل حاجة حتى ما كنتش عايزك تفكري معايا.

- ولما اكتشفت اني متراقبة، خططت لكل حاجة؟

- أنا ما خططتش لكل حاجة بس كان في صدف واستغلال كويس للظروف، لكن بعد ما اتأكدت انك متراقبة؛ كل حاجة عملتها معاكي كانت مقصودة، ما عدا أمي.

- كل حاجة!

- من أول لما قعدت أندهلك بصوت عالي في الشارع ساعة احتفالات العيد وده كان عشان بواب العمارة (شعبان) ياخد باله مني عشان كنت متأكد ان في حد هيجي يسأل عليا لأن اللي بيراقبك هيكون عنده فضول يعرف انا مين واخرجه من برج مراقبته ليكي ويعمل أي تصرف مش مدروس منه وغروره هيخليه واثق من نفسه قوي وده اللي حصل لما بعتلك حد يخوفك وانا معاكي وكان مستهون بيا.

نظرت إليه وهي تتذكر تلك المشاهد معه، ثم سألته:

- ولما كنا نازلين مسافرين لما حطيت إيدك على...

- كانت مقصودة برضو وانا آسف طبعا، بس كان لازم ألفت نظر البواب وأأكدله شكه إني مش مجرد واحد يعرفك وخلاص، لأ ده أنا ممكن أكون جوزك عشان ما حدش هيحط ايده عليكي كده غير لما يكون جوزك أو على الأقل خطيبك أو حتى واحد ماشية معاه كل الصفات دي تخوف اللي مراقبك على مصلحته إني أخطف منه حاجة، لأني حطيت احتمال ان حد يجي يسأله عليكي وعليا، ولو حصل وسألوا شعبان هيقول ان فيه حد جه سأل عليكي، وده هيساعدنا لو حد جه سأل عليكي من التلاتة سواء حازم أو طلال أو صادق هيأكد شك التحقيقات ان فعلا حد من التلاتة كان متربصلك.

قالت مبتسمة بإعجاب شديد:

- كل ده مخبيه، عمال تفكر وتعمل فيا حاجات وأنا مغفلة.

تجهم وجه كريم لحظات ثم انقلب وابتسم ابتسامة جانبية تحمل سخرية واضحة قائلا:

- مش لوحدك اللي مغفلة يا هبة، أنا كمان مغفل!

استدركت وتذكرت كل ما كانت تظن أن كريم قد نسيه أو تناساه، سائلة: يعني إيه؟.

- عادي ما انتي كمان فيه حاجات كنت مخبياها واللا نسيتي؟

- أنا ما خبتش...

- ما تكدبيش يا هبة، انتي عارفة اني شوفت كل حاجة واتأكدت من كدبك.

بدا صوت هبة مرتعشًا وهي تتحدث:

- أنا ما كدبتش يا كريم!

- لأ كدبتي.

- أنا ما كدبتش، أنا مش قصدي!

- إنتي فعلا ما قولتيش، انتي قولتي اللي عايزاني اعرفه، بس تاريخك كله كدبتي فيه، صدرتيلي بس الحاجات اللي تبين انتي قد ايه كنتي ضحية واتلعب بيكي وخبيتي كل تاريخك اللي يبين حقيقتك كويس وانك ما كنتيش ضحية للدرجة اللي كنت فاكرها؛ حازم اللي كنتي متجوزاه عرفي سنتين! سنتين من عمرك متجوزاه عرفي ومش قصدك ما تحكليش!

وكمان عملتي ترقيع عشان تلبسي واحد ما لوش ذنب وحسستيني ان هو اللي كان غريب لوحده مش انتي مثلا اللي ضاحكة عليه! ده تقريبا انضف منك انت وحازم لأنه ما ضرش حد غير نفسه، كدبتي عليا ليه في كل ده وانا قولتلك من الأول احكيلي كل حاجة، حتى لو مش في الأول، بس كان لازم بعد كده تحكيلي لما الموضوع بقى خطر عليا وعلى أمي وانتي نفسك خفتي تكملي، ازاي كنتي أنانية للدرجة دي، كان لازم تحكيلي على اخطاء ماضيكي وتسيبيني أقرر اكمل اساعدك على اساس

انك ضحية واللا اساعدك على اساس غلطات الماضي اللي ما تتغفرش وبتدفعي تمنها، ليه غفلتيني وانت عارفه اني...

اقتربت هبة منه وهي تمسك يده بقوة وقد بدأت دمعة تنزل منها خلسة، سائلة:

- عارفة إيه؟

- عارفة انك بقيتي حد مش زي أي حد قابلته قبل كده.

- بس انا ما كنش ينفع أحكيلك عن حازم يا كريم.

نزع يده من يد هبة بعنف وصاح:

- ليه، ليه!

- أي واحدة لما بتحب واحد وبتطمنله ما بتفكرش انه ممكن يطلع زبالة على احتمال انها هتقابل حد غيره بعد عشرين سنة أصغر منها بعشرين سنة وهتحبه وهتضطر تعترفله انها عملت غلطة زي دي، انا اتصرفت بالطريقة دي لأني ما كنتش اعرف غيرها وكنت لوحدي وانا بابا وماما وأخويا ماتوا من غير أي قرايب، ولا فيه أي حد ينصحني أو يساعدني، دي غلطاتي اللي ما حبش حد يعرفها وكمان مضطرة أجملها لو حكيتها!

كل واحد ليه غلطات بيبقى عايز ينساها وبيشكر ربنا انه ستره وما حدش عرفها.

- صح، انت بتتكلمي صح، بس ما تطلعيش نفسك مذنبة، ليه خليتيني اساعدك، كنتي قوليلي انك تحبي تفضلي في مكانك.

- انا ما كنتش عايزة افضل في مكاني.

- هبة انتي حكايتك ما خلصتش انتي حكايتك هتتعاد لأن ده ذوقك، ذوقك انك تقابلي حد وسخ زي حازم وتتجوزيه ولأن ده ذوقك خوفتي منه اول ما جاب سيرة فلوسك فسبتيه وعملتي تصرف أحقر بكتير من اللي اتجوزك طمعان في خيرك، انت رقعتي نفسك وضحكتي على واحد ما لوش اي ذنب، الجريمة اللي انت عملتيها مش جريمة مادية انما انتي زيفتي نفسك، جملتي ماضي انتي عارفة كويس انه ما ينفعش لا يتشاف ولا يتعرف غير لما نجمله، للأسف يا هبة، انتي مش ضحية.

هبة منهمرة في بكاء حار والدموع تتساقط من عينيها المتورمتين مارة بكدمات وجروح، وكريم يحملق فيها حاملًا مشاعر كثيرة متناقضة، اعترافها الآن بحبها له، وعكس ذلك أنه يعلم جيدًا أن كلامها حق ولكنه كان يتمنى من الفتاة التي يحبها أن تكون صاحبة ماضٍ لا تخجل منه أو تخدع أحدًا به لجلب نفع لنفسها على حساب حياة شخص آخر، لقد أحبها جدًّا وأراد حقًّا أن يبقى معها دائمًا ولكن ما المانع أن يكون هناك ماضٍ خفي آخر لم تحكِه، لقد زرعت بداخله أكثر بذرة يمقتها في حياته بذرة الشك والكذب الذي يعلم جيدًا أن أبناء آدم كلهم لا يخلون منه، هؤلاء الذين يتجملون كثيرًا عند قص تاريخهم.

خرج محمد من القسم، فوجدهما واقفين ينظر بعضهما إلى بعض وهبة باكية فقال:

- فيه ايه يا جماعة، مالكو، المفروض تكونوا مبسوطين!

مسحت هبة دموعها وقالت:

- ما فيش.

لم يرد محمد التدخل، فبنظرة بسيطة منه أدرك أنه صراع محبين، فقال لكريم:

- يللا يا كريم.

رد كريم بجفاء:

- لأ أنا مش هرجع معاكو، انت روح هبة مكان ما هي عايزة وأنا عندي مشوار.

تدخلت هبة بانفعال:

- انت بتكدب انت ما عندكش مشوار.

نظر إليها كريم بجمود خالٍ من أي مشاعر ثم لف ذراعه خلف رقبته ليخلع السلسلة الخاصة بها وقال:

- بحاول أبقى زيك واقول حاجات مش حقيقية عشان أخفي بيها حاجات تانية، امشوا يللا يا حجاج.

خلع السلسلة ومد يده بها إليها فنظرت إليه ثم إلى السلسلة التي خلعها حيث يعني بحركته تلك أنه ينزعها من حياته، وينزع أي شيء يتعلق بها أو قد يذكره بشيء منها، فلم تحرك ساكنًا ولم تلتقط السلسلة؛ فترك كريم السلسلة تسقط أرضًا.

قال محمد لهبة:

- يللا بينا يا هبة.

كانت هبة جامدة في مكانها كالتمثال غير مستجيبة لمحمد وغير مصدقة أن كريم الذي أشعرها الأيام الماضية بالأمان، يغادر الآن كما غادر كل شيء في حياتها، أبوها وأمها وأخوها ثم زوجها الأول الذي خدعها ثم زوجها الثاني الذي حاولت أن تتزوجه لتملأ فراغ حياتها فلم يفعل؛ فطلبت هي مغادرته، والآن سيغادر كريم ويتركها مثله مثلهم.

انصرف كريم مبتعدًا وترك هبة مع محمد يحاول إقناعها بالانصراف، لكنها ما زالت ترفض! أراد كريم أن يلتفت وينظر إليها نظرة أخيرة فقد أعجبه شكلها وهي تبكي اليوم دون أي مرة فعلت ذلك فيها، لا يعلم سببًا لهذه الاضطرابات في رغباته، فتوقف والتفت إليها سارقًا نظرة أخيرة فوجدها ما زالت واقفة تنظر إليه منتظرة رجوعه، نظر إليها نظرة أخيرة مدققة من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها ثم أخرج هاتفه واتصل بمحمد، الذي أخرج هاتفه كذلك فأجابه ثم ناول محموله هبةَ الباكية، التي ردت بصوت متقطع:

- ارجع!

- أنا فعلا مرتبط بيكي غصب عني، بس مش هبطل احاول أهرب من خداعك!

- ارجع!

****

تمت